صفحه	سطر	غلط	صوابه
١١١	٣	عادةً	عادةٌ
١١٦	٥	لخليفة	الخليفة
١١٨	٥	تحققت	تحققت انَّ
١٢٩	٤	فاذا	فاذا نظرت
١٢٩	١٤	النقد	النقد من
١٣٤	٩	وعليه	وعليها
١٣٥	٦	لزيغ	فذاك لزيغ
١٤٣	٤	ويتقرغ	ويتفرع
٢٢٩	٥	كان	لكان
٢٥٣	١٤	وابتهج أيدهُ	وابتهج بما يصير أيدهُ
٢٥٤	١٦	توزع	تُوزِع
٢٥٩	٧	متانق الالفاظ منطيق	منطيقيٌ متانق الالفاظ
٢٦٤	١	ومناقشة	ومنافسة
٢٧١	٦	راحتك	اراحتك

صفحة	سطر	غلط	صوابه
١٧٦	١٤	يَحَسُّ	يُحَسُّ
١٩٠	١٥	ادب	أَوب
١٩٢	٧	الحديدية	الحديدة
٢٠٨	١	وان	إن
٢٠٨	٣	ويَتَقَدم	وبتقدم
٢٠٨	١٣	سيرُ	خيرٌ
٢١٤	١٠	ما لا	ما يستحسنهُ
٢٢٨	٧	عفقت	عققتُ
٣١	١٥	للمؤاخذة	للتفنيد
٣٤	٨	محمد	محمداً
٤٥	١٥	نوراً	زيتاً
٧٣	١٥	باسقاط	لاسقاط
١٠٢	٧	تنشد	ينشد
١٠٦	١٥	كانهار	كأنها
١٠٩	١٥	اذا	اذ

الجزء الثاني

صفحة	سطر	غلط	صوابه
٤	١٣	دوكـ	دونك
٥	٨	مجفوُّ	مجفوِّ
٨	١٦	الآدن	الأيوان
١٥	٦	جوداً	جواداً
١٦	٩	هون	هوَان
١٨	٩	عند	عندي
٢١	٦	به	فيه
١٤٤	٣	بالملاذ	في الملاذ
١٥٦	٦	المشرق	المشرق على
١٥٩	٩	النبات في المكان	المكان في النبات
١٥٩	١٢	الحر في أرض	في أرض
١٥٩	١٣	لحصدنا	الحرّ لحصدنا
١٦٢	١٤	السودا	السوادا
١٧١	١٠	قولنا	قلنا

صفحة	سطر	غلط	صوابه
١٧٦	١٤	يَحُسّ	يَحِسُّ
١٩٠	١٥	ادب	أَوَب
١٩٢	٧	الحديدية	الحديدة
٢٠٨	١	وان	إن
٢٠٨	٣	ويَتَقدم	وبتقدم
٢٠٨	١٣	سيرُ	خيرَهُ
٢١٤	١٠	ما لا	ما يستحسنه'
٢٢٨	٧	عفقت	عققتُ
٣١	١٥	للمؤاخذة	للتفنيد
٣٤	٨	محمد	محمداً
٤٥	١٥	نوراً	زيتاً
٧٣	١٥	باسقاط	لاسقاط
١٠٢	٧	تنشد	ينشد
١٠٦	١٥	كانهار	كأنها
١٠٩	١٥	اذا	اذ

الجزء الثانى

صفحة	سطر	غلط	صوابه
٤	١٣	دوك	دونك
٥	٨	مجفوٌ	مجفوّ
٨	١٦	الآدن	الأيوان
١٥	٦	جوداً	جواداً
١٦	٩	هون	هوَان
١٨	٩	عند	عندي
٢١	٦	به	فيه
١٤٤	٣	بالملاذ	في الملاذ
١٥٦	٦	المشرق	المشرق على
١٥٩	٩	النبات في المكان	المكان في النبات
١٥٩	١٢	الحر في أرض	في أرض
١٥٩	١٣	لحصدنا	الحرّ لحصدنا
١٦٢	١٤	السودا	السوادا
١٧١	١٠	قوانا	قلنا

عن موضوع الكتاب ، لعززت شواهد الترجيح ، بما لا يبقي ريبة من ذلك في نفس مستريب .

واما الثاني وهو التنزيل فانهُ نازلٌ بين امرآء الحجا والكلام ، وملوك الانشآء والنظام ، في منزلة لم يشركه فيها الاّ افراد معدودون ، واعلام متفرّدون ، كابن المقفع وعبد الحميد ، والجاحظ وابن العميد ، وابن الاثير والحلبي ابن حبيب ، وابن خلدون والوزير ابن الخطيب ، وان شئتَ تمحيص هذا الحكم فعليك بمطالعة كتابات هؤلآء الصدور ، بل انصح لك ان تفعل ذلك فهو تمام الفضل والكمال الموفور .

تم الكتاب

ابن عبّاد احد كتاب الدنيا الاربعة وأجلسه في جانبه واحلّهُ محلّه ، بل ان الثعالبي قدّمهُ على الصاحب بقولهِ « اما الترجيح بين هذين الصدرين في الكتابة ، فقد خاض فيه الخائضون ، وأخبَّ المخبُّون ، ومن اشفّ ما سمعته في ذلك ، ان الصاحب كان يكتب كما يريد ، وابو اسحاق كان يكتبُ كما يؤمَر ، وبين الحالين بون بعيد . » فقد رأيت كيف رجّحه الثعالبي على الصاحب .

ولما كان القصد من نقد هذه الرسالة ان تكون مثالاً ونموذجاً لطالب هذا الفن ، كان لا بدَّ لي من اتبَّاع قسمي بث الحكم .

اما الاول وهو الترجيح فهو مرجَّح على ابي القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وعلى الصاحب بن عبَّاد بحكم الموازنة التي مرَّت بك بين الرسالتين ، وبحكم الثعالبي وغيره من اكابر الكتاب وحسبك قول ابن الاثير فيه « وكيف اضع من الصابئ وعلم الكتابة قد رفعه وهو امام هذا الفن والواحد فيهِ » ولو فُسحَ لي مجال القول ، ولم اكن اخشى الخروج

في كثير من خلاعاتهم ومجونهم ، فصدرت من قلمهِ اهاجٍ واقوال ، تناقض ما قالهُ في هذين البيتين .

ولم ينفرد الصابئ بمزية الانشآء فقط ، بل كان من الشعرآء المبرّزين ، الاّ انهُ اشتهر بالكتابة ، لانهُ اتخذها صناعة وبلغ بها منزلة رفيعة لم يشاركهُ فيها احد .

أما موقع حرّان هذه فبين سروج والرقة وهي من بلاد الجزيرة . وقد عدَّها صاحب نزهة المشتاق من البلاد الشامية ، وقال في موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية : حران كانت مدينة واقعة فيما بين النهرين وكانت في القرون المتوسطة محط ديانة الصابئة التي عطّلها الخلفآء العبّاسيون لاعتقادهم انها كفر : . وهوآء اكثر بلاد الجزيرة طيبٌ معتدل وتربتها جيدة جداً .

القاعدة الثامنة بثّ الحكم .

ان منزلة الصابئ بين ملوك الكلام ، وامرآء الكتابة والترسل ، وفرسان القرائح والشعر ، فوق ان يُبَثَّ فيها حكم وقد قال فيه الثعالبي « انهُ اوحد العراق » وعدَّهُ الصاحب

ولسنا نعلم شيئاً من أول أمره ، ولا عن أصل أسرته في حران ، وهو لا يذكرها في شيء من كتاباته التي بين أيدينا .

أما بيئتـه فقد شبّ في بغداد ، ودرس وتأدب على العلمآء الـكثيرين الذين كانوا بهـا لعهدهِ ، وبرع حتى تقلد كتابة عهود الخلفاء ، وتقاليدهم الى الملوك والوزرآء وغيرهم ثم سمي رئيس ديوان الرسائل ، دون سائر علماء عصره وكتابه وهم مَن تعلم .

وقال أبو منصور البريدي ان أبا اسحق ابراهـيم الصابئ كان من نساك أهل دينـه والمتشددين في ديانته وتصونه عمـا يدعو اليه الهوى ومن قوله .

حمتني لذتي رتبُ المعالي　　　وضني بالمروءة والوقارِ
ودينٌ ضاق فيه مجال فتكي　　　لخوف عقوبة وحذار نار

بيد انه اذا أمعن الناقد في البحث عن كل ما كتبـه ، وجد له ما يخالف هذا القول ، ولعله لم يرَ بدًّا من مجاراة اهل قطره ، والعدوى من اخلاقهم ، والتأدب بآداب البيئة التي كان فيها ، ونهج طريق معاصريهِ من الامرآء والوزرآء ،

يخبر بغرامته ، كامرٍ لا يُستغرب وقوعه ، وكل ذلك يدلُّ الناقد اوضح دلالة على عجز الخليفة عن القيام بامر الدولة ، او على تهاونه بمصلحة الرعية وانهماكه في الملاذ ، واعتياد العمَّال والكتَّاب وغيرهم من اغنياء الناس ، تحمُّل مثل تلك المغارم بل المظالم ، وترقبهم وقوعها عند كل عزل ونصب .

واذا تبصرت طريقة انشاء هذه الرسالة ، علمت منها ان هذا كان مذهبهم في الكتابة لذلك العهد ، وخصوصاً في العراق ، اذ كما ذكرت لك فيما سبق ، لكل عصر بل لكل قطر ، طريقة في الانشاء يألفها أهله حقبة من الدهر .

القاعدة السابعة في نقد المؤلف قسمه الاول البحث عن مسقط رأسه وبيئته والثاني موقع بلده الجغرافي وهواء اقليمه .

قد علمنا من قول صاحب الرسالة « عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق » انها كتبت من العراق ، فاذا رمنا البحث عن وطن الصابئ لنعلم بحكم هذه القاعدة منبت اثلتهِ ، ومَهبَّ قريحتهِ ، فخرّان مسقط رأسه ، ومنشأ انفاسه ،

الدولة ، أو حال هَرَمٍ ، اذ لا تحدث كثرة العزل والنصب في ولاة الدول ، ولا يَقع تعاقب التبديل فيهم ، الا عند اشتداد الخطوب أو حصول أزمةٍ في الدولة ، أو حلول الضعف والعجز بمتولي امورها ، كما كان الشأن لعهد كتابة هذه الرسالة . ثم ان الناقد يعلم من هذه الرسالة ، اذا جرى على حكم قاعدة نقد الزمان باحثاً منقباً ، ان اولئك الوزراء او الولاة ، كانوا لدن نصبهم ، يتعهدون للخليفة او للمالك ، بمالٍ وافرٍ يؤدّونه لهُ بعد استلامهم زمام الاحكام في الولايات التي كان يقطعهم اياها ، وهذا المال يجمعونهُ من المغارم التي كانوا يغرمون بها العمَّال والكتَّاب وغيرهم وذلك لقولهِ : حتى انتهت مغارمي الى نحو خمس مئة الف درهم : ويرى الناقد من هذا ان ارتكاب الرشوة ، امر شائع لذلك العهد ، عند اكثر عمَّال الدولة حتى الكتَّاب ، وان الظلم كان بالغاً منتهاه ، لان الصابئ على غلو منزلته وما كان لهُ في تلك الدولة من المرتبة العالية ، لم ينسب ظلماً لمن اغرمهُ ، ولا شدد عليه النكير لجوره ، ولا استنصر احداً عليهِ ، بل هو

واذا نظرت الى قولهِ : وانفذت درجه كتاباً الى مولانا الامير مؤيد الدولة : لم يبقَ لديك شك في ذلك ، لِما انَّ من يكتب الى ملكٍ ، لا يرسل كتابهُ اليهِ ، الا عن يد امير أو وزير ، وخصوصاً في مثل الغرض الذي يتوخاه الصابئ .

وهذا وما سبق ذكره يدلك على ان الاستنتاج بكرم اصل الصاحب من نفس الرسالة المنقودة ، هو استنتاج صحيح ، فان لم يقنعك ذلك ، أو لم يكفِك ، فعليك بالتأريخ ، تؤيد بهِ برهانك وتدعم حجة نقدك ، فتعلم منه ان ابا الصاحب هو ابن الحسن عبَّاد وكان وزير ركن الدولة ابن بويه .

القاعدة السادسة **نقد الزمان** اذا نظر الناقد الى قولهِ : فان نوب الدهر تتردد منذ سنون عليَّ الخ : ثم الى قولهِ : لتعاقب الايدي الوالية علينا الخ : علم ان المحنة التي يشير اليها الكاتب لم يكن قد طال عليها العهد لقولهِ **منذ سنون** ثم علم ان اسباب هذه المحن ، هي كثرة العزل والنصب ، او تغلّب الحكام بعضهم على بعض ، وتبدّلهم بسرعة لقولهِ **لتعاقب الايدي الوالية علينا** ، ثم استنتج من ذلك حال فوضى في

يتسامح بذلك ، وهذه رسائل الخوارزمي فاذا قلبتها رأيتَهُ لم يكتب بشيء من هذهِ النعوت الى صاحب الديوان في جرجان ، ولا الى رئيس طوس ، ولا الى رئيس هراة ، ولا الى وزير خوارزم شاه ، ولا الى حاجب ركن الدولة ، ولا الى غيرهم ممن هم في طبقتهم ؛ ولكنَّهُ لما كتب الى الرئيس ابي نصر الميكالي قال « ولم اتعجب من ولدٍ تقبل قبلة الوالد ، ومن طريفٍ نازع التالد ، ومن غصن من اغصان الشرف ، نما على عرقهِ في السلف ، ومن نفس رضعت ثدي المكارم ، وربيت في حجر الاكارم » واذا تتبعت رسائل بديع الزمان الهمذاني رأيتَ انه لم يمنّ بمثل هـذا النعت على الوزير ابي نصر ابن ابي برده ، ولا على رئيس هراة ، ولا على صاحب ديوان بست واضرابهم ، ولكنه على صَلَفه لما كتب الى الامير ابي الحارث محمد قال : وما زلت ايد اللهُ الامير اسمع بهذا البيت القديم بناآؤه ، الرحب اناؤه ، الكريم ابناؤه : واذا امعنت في التفتيش والتنقيب عن كتابات القوم لذلك العهد ، لم تجد شذوذاً لهذه القاعدة .

واشتططت واحتكمت ، كانما يروم ان يخدع نفسه ويقول أليس ان هذا الرجل هو كفؤي ونظيري وصديقي ؟ فما هذا من باب الاستماحة او الاستجداء ، ولكن من باب الصداقة والاخاء ، ومن كان في منزلتي عنده يحق له ان يشتط ويحتكم . . . . تعلةٌ كاذبة ، ومخادعة باطلة ، وتمنٍّ لا يغني فتيلا

تغرُّ حلاواتُ النفوسِ قلوبَها .

فتختارُ بعضَ العيشِ وهو حِمامُ

القاعدة الخامسة نقد المقول فيه وتنحصر هنا في المقايسة اللفظية ، فاذا نظرنا في قول الصابئ له : واستكمال ما يتقسم بينهم من اصل راسخ ، وفرع شامخ . . وادبٍ جزل ، ومنطق فصل ، وقريحة ثاقبة ، ودراية صائبة : تبين لنا ان المكتوب اليه « أو المقول فيه » كان من افراد الدهر جامعاً الى كرم الاصل ، شرف الفضل ، وان قيل قد يكون ذلك مجاملةً أو تزلفاً الى المقول فيهِ قلتُ لكل عصرٍ اصول وعوائد متّبعة عند اهلهِ ، فاذا نظرت الى مكاتبات اهل ذلك العصر ، وجدت مَن كان دون مقام الصابئ في العلم والرئاسة ، لم يكن

منها في الوقت اشلاءً منهوكة واعظماً مبرية الخ . بل كأن كل جوارحه ، كانت تلظم وتتلهف حال كتابته هذا الكلام ، الجامع اقصى غايات النعم والسقام .

وكأنهُ لما ذكرَ دواعي الاضطرار الى قولهِ : فكان سيدي ادام الله عزه : القى القلم وعاود قرآءة ما كتب ، فكادت تتصبب دموعه دماً ، وكاد يتفطر خجلاً وألماً فقال « وكتبتُ كتابي هذا بيدٍ يكاد وجهي يتظلم منها اذ تخطّهُ اشفاقاً على ماآئهِ مما يُهَرِيقه » فهو كان في كل كلمةٍ من هذا الكتاب ، كمن يكتب بدم قلبه ، وبين كل جملةٍ واخرى ، يعود الى نفسه فيتماسك ببقيتها الضعيفة متجلداً كأَن يقول : وخاصةً من كانت لهُ في نفسهِ المزية التي لي على غيري : او كقوله : وكوني معه تحت ظل الدولة الخ : وبعد ان قال : وكل ما يتأتى من الجميع محسوب من جماله ومعدود في إفضاله الخ : كأني به كان يراجع ذاكرته فيقول أتراني امسيت سائلاً شحاذاً مستعطياً بكفهِ ؟ فيزجر نفسه ويكتب : وسيدي الصاحب اطال الله بقاءه وليّ ما يراه فيما سالتُ واقترحت ،

نفسهِ، ومخاطبتهِ الصاحب مخاطبة النظير نظيره، فانهُ منذ أول رسالتهِ الى هذه الجملة، كان يتكلم عن نفسهِ بالضمير المفرد فكان، من حقهِ ان يقول: عليَّ وعلى أهل صناعتي، ولكنهُ قال صناعتنا يريد بذلك ان يقول للصاحب «صناعتي وصناعتك» — وهي الانشاء ورئاسة ديوان الرسائل — فكأَنهُ مع ما بهِ من الكمد والخور، لم يفقد انَفة الرئاسة وحميّة العزّ، ولم يرضَ ان يرفع الصاحب عن مساواتهِ في المنزلة.

ثم انظر الى قوله «وقد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي وبذلي دونها مالي ووقايتي اياهما بما ملكت يدي حيث لم أسأل المعونة أحداً، ولا سمحت ان استميح مسوَّداً ولا سيداً». تجدكم في هذه الجملة من الاباء وعزة النفس؟ وكم في لفظة ولا سمحتُ من الترفع والرئاسة؟.

وكأنهُ لما شفى نفسه باخباره صاحبهُ بما كان من أمرهِ، وشكى اليهِ تأثير هذه النوائب في جسمهِ، كان كمن يمسح دموعَهُ ويكتب هذه الجملة. وصادف ما تجدّد عليَّ

يظهر للناقد بأدنى تأمل ، لكنه أغصَّ بريقه ثانيةً ، وخجل من نفسه واظلمت الدنيا في عينيه فماطل نفسه وخادعها وعاد الى تكرار الدعاء بقوله : وان يبلغه مدى همتـهِ العالية المشتطة الخ : ولا محل لهذا التكرار والتطويل ، الاما ذكرته لك ، من مدافعته نفسه الوصول الى الاستجداء خجلاً من نفسه ، وحياء من الصاحب .

على انهُ لما قال بعد ذلك : واما بعد : كأَنهُ تذرع بكل قواه ، لبذل ماء محياهُ وقال : أيد الله سيدي الصاحب ، وكأَنه لم تبق فيه قوة للتلميح والتعريض ، فرام التخلص من ذلك الموقف الحَرج ، والمقام الذي انقبضت له نفسهُ وكادت تزهق بهِ روحه ، اذ تصور ذاته بحضرة الصاحب يستمطر وابل نعمائه ، بعد ان كان من نظرائه ، وكأَنه أغمض عينيه وانحلت عقدة لسانه ، فجرى في ميدان قصده ناطقاً كعادته فصيحاً ، مبلغاً غرضهُ صريحاً وقال : فان نوب الدهر تتردد عليَّ وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق : وهنا يجد الناقد حجة جديدة تثبت عدم تزحزح الصابئ عن مقامهِ في عين

الاطالة المترامية الخ : ومثل الصابئ لاتفوته معرفة مذاهب الكلام ووضع الشيء في محله ، الا انه لما نظر الى حالته ، والضرورات التي ألجأته الى أن يسترفد كفؤه وقرينه ، وان يقوم هذا المقام الضنك ، (بعد ان كان يخاطبه بالكاف ولا يرفعه عن رتبة الاكفاء) [١] خطر في باله مجد الدنيا فرآه غروراً وتمثل غناها فوجده خداعاً ، فقابل بين يومه وأمسه ، وتذكر مكاتبات الصاحب لهُ ، فخشي عليه ان يبتلى بمثل ما ابتلي هو فقال باخلاص : ولا يبتليه في شيء منها بعثرة ولا هفوة [٢]

وكان على الصابئ بعد دعائه وثنائه ووصوله الى هذه الجملة ان يقول اما بعد وينطلق في حديثه وبيان قصده كما

(١) يتيمة الدهر للثعالبي

(٢) هذا يؤكد ما قاله المؤرخون من ان نكبته كانت لعثرة عثر بها قلمه في كتاب أنشأه عن الخليفة في شأن بختيار عز الدولة، ولهفوة بدرت من لسانه في حق عضد الدولة فحقد عليه الاولى ، وأفرغ نقمته عليه عند ما وُشيَ به في الثانية اليه

والدعآء ، وكيف انه كلما اقترب من غايته ، تبين على انشآئه بعض الانقباض كقوله : ونسخ به شرط الدنيا الفاسد في اهدآء حظوظها الى أوغادها : فتأمل سجعة هذه الجملة ، وانظر كم في لفظة **أوغادها** في هذا الموضع من الحنق والحقد على أحكام الدهر ، وانظر بعد ذلك في قوله : على رفاغة من معاشه ، والارتقآء الى درجاته في سكون من جاشه : تجدكم تحت هذا السكون من اضطراب في نفس الكاتب ، وكم ورآء هذا الجأش من التضعضع والتجلد . ولما وصل الى هذه الجملة كأني به وقد أوقف القلم ليستحث قريحته على قول يرقع به ثقوب خذلان نفسه له ، وضعفها عن البوح بما كلفتها الضرورة ودفعتها الحاجة اليه ، وكأنه شعر بضربات قلبه ، ثم استجمع قواه وقال : ولا يبتليه في شيء منها بعثرة ولا هفوة : فاذا محّصت هذه الجملة ، وجدتها غير متناسبة المعنى مع ذلك الوصف الى المكتوبة اليه ، وانت تعلم ان من كان في منزلة رفيعة ومقام عال ، لا يُدعى له بمثل هذا الدعآء بعد ان قال له : وأضرع الى الله ان يطيل بقآء سيدي

فلننظر في القسم الثاني من القاعـدة الرابعـة وهي **الاميال** أو العواطف أو **الاحداث** النفسانية .

يظهر لمن أنعم النظر في هذه الرسالة ، ان كاتبها كان في غاية القلق ونهاية الغم عند كتابتها ، فانظر كيف ابتدأ كتابه بالاعتذار والتلطف في العتاب ، ثم كيف انتقـل الى الثناء

الصابئ . ويلزم من ذلك ان تكون روايتهُ أصح من ابن خلـكان . فان رواية صاحب الوفيات هي الصحيحة من وجهين وهما سنة وفاته وعمره . اما ولادته فقد غلط فيها ابن خلـكان ليس فقط لوقوعها قبل ذلك ، بل لانهُ لو كان مولده سنة ٣٢٠ كما ذكر ووفاته سنة ٣٨٤ لـكان عمره ٦٤ سنة لا ٧١ كما ذكر . وقول الصابئ : في ذمام المماحلة والمراضعة : برهان صريح على انه كان سنّ الصاحب أو قريبـاً منهُ اذ من الممكن ان تكون أم الصابئ أرضعت الصاحب مع أحد أولادها غير ابي اسحق المترجم . ولا أدري أين حصلت المراضعة فمولد الصاحب باصطخر والصابئ في حران ولعلّ والديه كانا في اصطخر اذ كان طفلاً . وقال ياقوت في معجم الادباء مات ابو اسحق يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنـة ٣٨٤ عن احدى وسبعين سنة ومولده في سنة ٣١٣ كذا ذكره حفيده هلال بن المحسن بن ابراهيم في تاريخه .

من ان يحزها بساعيه ، فانه يُستشف من هذا الكلام ، ان الصاحب كان في الكهولة ، مالكاً تمام قوّته ونشاطه ، وان قيل لما لا يكون شاباً أجبت لقول الصابئ : انه لم يستوفِ بعد حظه : الى آخر الكلام ، ولو ان الصاحب كان شاباً لقال الصابئ « انه في تباشير أمره ، ومستهل عمره ، وهذه فواتح سعوده ، وغرر جدوده ، » أو ما كان بمعناه . فاذا عرفت ذلك ونظرت الى قول الصابئ : وفي ذمام الممالحة والمراضعة : وتبين لك عمر الكاتب وانه كان كهلاً في حدود الخمسين من سنيه ، حال كتابته هذه .[1]

(١) يقول ابن خلكان ان مولد الصابئ سنة نيف وعشرين وثلثمائة نقلاً عن كتاب الفهرست للنديم البغدادي ، وان مولدالصاحب كان سنة ست وعشرين وثلثمائة ويقول ان الصابئ توفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة وعمره احدى وسبعون سنة . أما الثعالبي فيقول كانت وفاته سنة أربع وثمانين أيضاً وكانت سنوه احدى وتسعين سنة قمرية ، فان قيل ان تسعين هنا مصحفة عن سبعين ، قلت لا وجه لذلك لانه يقول في أول ترجمته ما نصه : وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء والوزراء : ومع ان الثعالبي يكاد يكون من معاصري

ادلّ المتحدثين عنهما والسامعين بهما — الى قوله — وما اخاف في هذا القول والحمد لله من غلط الفراسة ولا كذب المخيلة الخ : يكاد يكون حديث والدٍ يحدث بهِ عن ولده او كلام امير عن مولاه وكقولهِ : مَن كانت لهُ في نفسه المزية التي لي على غيري . . وفي ذمام المالحة والمراضعة وحرمتها ، . والاسباب التي هو لها بكرم عهدهِ حافظ : كل ذلك يدلك على سمو مقام المنشئ ، وانهُ قد اعتاد ان يقول عندي ، واغتباطي ، وامنيتي ، ومَن لهُ في نفسهِ المزية التي لي على غيري ، وما شاكل ذلك من الالفاظ الدالَّة على علو المنزلة ، وهو ما زال في الكلام متدرجاً ، الى ان ذكَّرهُ بما كان بينهما من حقوق المؤاكلة ، وحرمة المراضعة ، وذمام الالفة والعشرة ، التي تكون بين الاخوان والاقران . وكقولهِ فيما سألت واقترحت ، واشتططت واحتكمت .

واذا تبصّرت بعض عبارات هذه الرسالة ، وقفت على سن الكاتب والمكاتَب كقوله : انهُ بعد لم يستوفِ حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فان للدنيا مواعيد فيه ، لا بدَّ

فاذا نظرت نظر ناقدٍ ألمعيّ ِالى ما تكرر في هذه الرسالة من اللفظ المتشابه بالمعنى الواحد ، علمت ان الكلام ليس كلام فقيهٍ أو عالم ، ولا كلام صعلوك . بل كلام امير او وزير او من ربي بين الامراء والوزراء ، وغلبت على لسانهِ الفاظهم كقوله : استقامة الاخبار وانتظامها ، واطراد الاحوال والتئامها ، والذروة ، والمرتبـة ، وغارب المرقبة ، والمساواة والاستحقاق والمداناة والاستبداد ومجاراة اقدام النظراء ؛ ومزاحمة مناكب الاكفاء ، وتعاقب الايدي وتجاوز المنزلة ؛ واستئصال الاحوال ، وتوفر القسط ، الى شيء كثير من مثله قد اجتمع في رسالة واحدة كهذه .

ثم ان تعتب الكاتب على المكتوب اليه وغير ذلك من العبارات التي وردت في رسالته يدلّ على ان الكاتب من اقران المكتوب اليه كقولهِ : جربت مكاتبته ايده الله ، فان المكاتبة مفاعلة ولا تكون في الغالب الا اذا كان كل من الرجلين يكتب للآخر ثم قوله : جربت : لا يكتبها الصغير الى الكبير بل بالعكس او النظير الى نظيره . وكقوله : وان

مستثنياً من ذلك الصاحب لانه من اهل صناعته ؛ ثم جهر بالضَراعة الى الله باطالة بقآئه شأن طالب الرفد واشار بلطفٍ الى الغرض الذي دعاه الى كتابة رسالته واستعداده للتصريح بهِ بقولهِ : ولا يبتليهِ في شيء منها بعثرة ٍ ولا هفوة :

اما باقي كتابه فكلّهُ فرائد . ومن كان لهُ ذوق في طبقات الكلام ، عرف قيمة هذا النظام ، وعجب كيف اجتمع في حافظة ذلك المنشئ هذا القدر العظيم من اللاآلي الكبار ، بل لا يعجب متى علم ان الصابئ صاحب ذلك النثار ، وانت اذا تأملت بعين الناقد العبقري ، ظهر لك ان القسم الاخير من هذه الرسالة ، اي من قوله : وكتبتُ كتابي هذا : الى آخرها ، اقل تراكماً ، وتزاحماً واكثر وضوحاً ، واخف محملاً على النفس ، واوفر طلاقةً ، واقل انقباضاً والسبب في ذلك ، ما سيظهر لنا في نقد القائل .

القاعدة الرابعة : **نقد القائل** : واقسامها ثلاثة كما علمت وهي **التكرار والاميال والغرض** .

القسم الاول **التكرار** ومنه يمكن استقرآء منزلة المؤلف .

مقام الكلام ، فبشر الصاحب بالنعم المستقبلة مستدلاً على ذلك بصدق فراسته . ثم انهُ تعويذاً لتلك السعادة العتيدة التي يتمتع بها الموصوف، وللغبطة المقبلة التي يبشره بها، وتأكيداً لاخلاصه لهُ ، أخذ يبرهن على استحقاق الصاحب بوصف قد بلغ الاغراق ، وهذا مما يتَعقَّب بهِ على الصابئ في هذه الرسالة ، ولعل لهُ عذراً بل عذرين أما الاول فان الموصوف كان في الحقيقة عند وصف الصابئ الى قوله : وكفٍ هامية : وحسبك بعض ما قال فيه الثعالبي بعد وفاته بسنين « انهُ تأريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومَن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح بهِ مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق » بيد ان ذلك لا يكون عذراً للصابئ ليتمادى في المبالغة ، الاَّ اذا رجع الناقد الى زمن تلك الكتابة مما سننظر فيه . واما الثاني فهو ان الرسالة رسالة طلب رفد ، ولا يُنكر على المستميح ان يطنب في مدح المسئول ، وخاصةً اذا كان ذلك المسئول الصاحب بن عبَّاد .

ثم اخذ يمهد لطلبه بذكر غدر الايام باهل الفضل ،

وانها السبب في تأخر كتبه اليه ، وتلطف ما شاء اللطف واتضع ، والتواضع من خلق العقلاء ومن اشرف مزايا الاكابر من الناس ، واستحسن ان يُري صديقه انه لا يروم مقابلة فعله بمثله ، بل انه لا يقف معه في موقف عتاب لاجلاله مقامه فقال : فلما لاح لي ان الاجمام انفق والترفيه اوفق : اي راحتك من الاضطرار الى مكاتبتي وازاحة تعبك من ذلك ، ولكن بأي لفظ بليغ أنيق قال هذا الكلام . وهو كما علمت لم يقل : من الاضطرار الى مكاتبتي : ولكن فهم ذلك المكتوب اليه ، مثلما فهمهُ الناقد البصير . وعطف على ذلك لسلامة قصده وصدق وده بقوله : ووثقت بأن رأيه عليّ في الحالين محروس النواحي والجوانب ، محمي المشارع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره وأسرَّ باستقامتها وانتظامها : فانظر على أي نسيم من نسمات الصبا حمَّل الصابئ هذا العتاب ، ومن أيّ فُراتٍ قد استخرج هذه الدرر بل من أيّ بحر من البحور العذابَ ، ثم انظر كيف انه جرى بعد ذلك مع الطبع دون تكلّفٍ ولا تصنع وحسبما يستدعيه

من طول الجمل او قِصَرها ، عند سدرة المنتهى من جنة الانشآء وروضة الترسل ، الى غير ذلك من قوة العارضة . واستقامة الحجة ، وامتلاكه زمام الكلام ، وحيازتهِ شتيت اللفظ ، واختياره الفصيح من اللغة ، وتصرفه في وجوه القول والتعبير نثراً ونظماً ، بحيث انه لم يزل منذ الف سنة الى اليوم ، عَلَماً تُضرب بهِ الامثال ، عندَ كل من نال حظاً من اللغة العربية .

ولولا ضرورة دعم القاعدة بالحجة ، وشرح الكلام لتأييد القاعدة ، لما احتاج كلام الصابيء الى بيان فضلٍ ومحاسن ، فقد اشتملت عليهِ البدائع كلها .

فانظر كيف افتتح رسالته بالاعتذار من صديقه الجليل لتاخّرِهِ عن مكاتبته ، وذلك خير ما اتّخذهُ المنشيء رائداً في سبيل دوام الود ونجح المقاصد ، وانك لتجدنّ الفرنجة لعهدنا هذا ، لا يعملون عملاً ، الا ويبدأونهُ بطلب العفو والاعتذار .

ثم بسط عذره بافصح لفظ واتمّ اخلاص والطف تعبير ، واشار في خلالهِ ، الى انقطاع كتب صديقهِ عنه ،

هذا كله فانَّهُ اراد محاكاة مَن تقدمه فيما يشبه طريقتَهُ هذه، فتمَّ لهُ السبق بالادمان والاتقان وصدق الارادة ، فالمحاكاة اذن حاصلة ، ولعله قصد محاكاة بن المقفع او ابن قتيبة ، او الجاحظ ، او عبد الحميد الكاتب ، ولم أتقصَّ في البحث عن ذلك اذ المراد من هذا الفصل ايراد امثولة للمستفيد ، لانقد كتابات الصابيء حق نقدها .

بقي الكلام في جملة نقد القول وقد عرفنا مما سبق بسطه ، اننا اذا رمنا الوصول الى نقد القول بامانٍ ، وجب علينا ان ننزّه النفس عن الغرض ، ونحو شرف الغاية ، وسلامة الطبع والقصد . فاذا نظرنا في كلام الصابيء ، وجدناه من الفصاحة في المقام الارفع ، ومن الجزالة والسلاسة في الطبقة العالية ، ومن الرزانة ورصانة التراكيب ، في ميدان قد امتاز به وانفرد ، ورايناهُ في انتخاب الالفاظ اللائقة بالمعاني ، في مضمار لا يُجارى فيه ، وفي تنسيق الكلام ورصفه ، وبراعة المطالع وحسن الدخول باستخدامه المعاني التي تناسب الاغراض ، وفي رد اعجاز المعاني على صدورها واعطائها حقها

ابي القاسم بغير الفرائد .

القاعدة الثالثة : **نقد القول** : هذه القاعدة كما علمتَ تنقسم الى ثلاثة اقسامٍ وهي **الغاية**، **والفائدة** ، **والمحاكاة** ، اما **غاية** الصابئ من كتابهِ هذا فهي ظاهرة يريد ان يواقف الصاحب على ما آلت اليه حالهُ من الفقر والهوان وتوالي النكبات عليه ، بعد الغنى والجلالة والنعيم .

واما **الفائدة** فهي الوصول الى رفد الصاحب ليستعين بهِ على معاشه ، ويستر به خلّتَه ، ويرقّع ما تخرق من ثوب منزلته في اعين الناس . وقد حصل عليها ولا شك ، فمثل الصاحب من يقدر قدر هذا الكلام .

واما **المحاكاة** فاعلم ان ابا اسحاق الصابئ لم يكن مقلّداً . بل مبتدعاً ، بل هو امير الانشآء ، والمراد هنا بالابتداع . لا انه ابتدع السجع ، فهو فيه مطرّس على آثار من سبقه من الجم الغفير ، ولكن تصريفه الكلام ، وتصرّفه في معانيه . ونسق تعبيره ، كل ذلك اوجد طريقة من الانشآء عرفت بهِ ، وحسبك اعتراف صاحب المثل السائر له بذلك ، ومع

حييٌّ من الهي أن يراني
وقد فارقتُ دارك واصطفاكا

فبمثل هذه الآيات يُودَّع الملوك والامرآء ، لا بسوابق العبرات والتكلف في الانشآء .

ولما عاد الى اتمام الرسالة كتبها بقلم قد ملّ ، وخاطر قد كلّ ، فيرى فيها الناقد ، كلمات متكلّف متجمّل ، واعتذار متصنع في الود او متعمّل ، وعتاباً اشبه بوعيد كما في قوله : ولولا الثقة به وبما استفدته : وتكاد تحسب انه سيقول بعد قوله « لابديت ما اخفيت » **من سوء افعالك وعيوبك .**

وليس القصد مما ذكرته تفنيد كلام ابي القاسم بن يوسف وهو من افراد كتّاب الدنيا ، بل موازنته بكلام الصابئ ونقده ، ليظهر للمطالع ما قَصَّر بهِ ابو القاسم وما يُعاب عليهِ . باعتبارهِ انهُ احد ملوك الانشآء وامرآء الكلام ، وقد لا يكون لهُ بين رسائلهِ كلها رسالة هي موضع استدراك كهذه ، ولو وقعت الينا من قلم غير ابي القاسم عبد العزيز ، لعددناها من القلائد ، ولكننا لسنا نقنع من

أما محاسن الابيات الاربعة التي بعد الثالث فغير خافية، وفيها من رشاقة اللفظ ، ولطف المعنى ، ما هو اهل أن يكون من نظم ابي القاسم بن يوسف ، واما قوله : ففاضت على خدي : الى آخرهِ فلا محل للدموع في هذا المقام ، بل لا يليق صدوره من المادح النبيل ، ولا ان يخاطَب بمثله ممدوحهُ الجليل ، اذ هو ضعف وعجز ، وبمثل هذه المعاني الدقيقة يُعرَف فضل السابق وينجلي تقصير المسبوق ، فانظر الى قول المتنبي في وداع ابن العميد

فَجُدْ لي بقلبٍ ان رحلتُ فانني
مخلِّفُ قلبي عندَ مَن فضلُه عندي

ولو فارقتْ نفسي اليكَ حياتَها
لقلتُ اصابت غيرَمذمومةِ العهدِ

وقوله في وداع عضد الدولة .

ومَن اعتاضُ منكَ اذا افترقنا
وكلُّ الناسِ زورٌ ما خلاكا

قدره وقدر المرسل اليه ، من الكلام العالي والنظم الانيق ، والمعنى المبتكر ، ولا جانب الحشو ، أوحاذر التكرار ، فافتتح قصيدته « بأقول » وعلّق النتيجة التي يفتح السامع لها أذنيه ، بالبيت الثالث ، وهذا من الضعف بمكان ، فان البلاغة والبيان يقضيان أن يكون مقول القول وضيحاً قريباً كقول الشاعر

أقول لها وقد طارتْ شعاعاً

منَ الابطالِ ويحكِ لا تُراعي

وكقول الآخر

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً

احدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ

وكقول الآخر

أقولُ لنفسي في الخلاءِ ألومُها

لكِ الويلُ ماهذاالتجلدُوالصبرُ

وعدا ذلك فانهُ لم يأتِ في البيت الثالث بشيء ينتظره السامع بعد ما انصت كل هذا الانصات ، سوى الدعاء للعهود والسجايا بالمطر ، وانظر ان كان في ذلك كبير معنى .

بالغيب فانيّ متّهم في خدمته على حسب الضن بها، ومناقشة كل أحدٍ عليها ان شاء الله تعالى .

فبموازنة هذه الرسالة مع التي قبلها ، يظهر تقصير كاتبها عن بلوغ شأو الصابئ ، ويبدو فضل الصابئ كالشمس في رائعة النهار ، وسأجتهد في ايضاح وجوه التقصير التي هي في هذه الرسالة ، بحد ما يمكن من الايجاز .

اذا انعم الناقد النظر في فاتحة هذه الرسالة رأى ان قوله : وحالي فيما أعانيه من تمثل حضرته : ليس من نخل الكلام ، بل هو بمطلع رسالة ، الى محبوب أشبه منه بمطلع كتاب من فاضل كبير ، الى وزير أو نظير . وقوله بعد ذلك : سَعِدتُ فيها برؤيته ، وأُفِدت حظها من مشاهدته ، : تكرار فان السعد والحظ واحد ، والرؤية والمشاهدة واحدة ، وليس وراء هذا التكرار تمكين للمعنى ، أو ايضاح لهُ كما يحسن ذلك في بعض المواضع ، ثم كأن النثر ضاق عليه برحبه فما كتب سطرين حتى لاذ بالشعر علّهُ يجد بهِ ميداناً لاطالة الكتاب ، فلم يأت أيضاً بما يناسب

واني وان رُوّعتُ بالبين شائمٌ

طوالعَ عتبي من طلاعِ العواقبِ

وما انا بالناسي صنائعك التي

كتبنَ عليّ الرقّ ضربةَ لازبِ

ابتدأت أطال الله مولاي بكتابي هذا وفي نفسي اتمامه نثراً فمال طبعي الى النظم واملى خاطري على يدي منه ما كتبت ، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض ، وقد اقتصرت عليه من الكتاب ناطقاً عني ، واثقاً بما عنده لي ، وانا استرعيهِ غيبه ، واستغطيه عيبه ، وكنت كتبت الى حضرته من أول منزل أو ثانيه ، بذكر ما أودعه حرُّ الفراق قلبي ، وازالتهُ أيدي الاشواق من عزائم صبري ، وتوقعت الجواب عنه ، فابطأ هذا الركابي خالياً من كتابه ، وكانت عادة كرمهِ جارية عندي بخلافه ، ولولا الثقة بهِ ، وبما استفدته من اللقآء والخدمة ، وحرمة الوفادة والهجرة من أزمة عهده ، لابديت ما أخفيت من قلق وانزعاج ، لاختلاف العادة عليّ ، ومولاي وليّ صوني عن موقف الظن والرجم

تذكرتُ ايامي بقربكَ والمُنى
يقابلني بالعزّ من كل جانبِ
وفي ربعكَ الدنيا تزفُّ محاسناً
وتفترُّ منكَ عن ثنايا مناقبِ
وقد لحظتْ عينايَ من شخصكَ العلا
ومن فرعكَ الفنيانِ اعلى المناسبِ
ومن لفظك الدرَّ المصونَ ومن حيا
محيَّاكَ ما لم تحوه كفُّ خاطبِ
واخلاقك الغرَّ التي لو تجسَّمت
لكانت نجوماً للنجومِ الثواقبِ
ففاضت على خدي سوابقُ عبرةٍ
كما اسلمت عقداً انامل كاعبِ
سلامٌ على تلك المكارمِ والعلا
تحيَّةَ خلٍّ عن جنابكَ غائبِ
يكابدُ ما لو كانَ بالسيفِ ما مَضى
وبالمزنِ لم تبللْ لهاةً لشاربِ

من معاصري الصابيء واصحابه ومن كتاب آل بويه والرسالة الى الصاحب ابن عبّاد نفسه وفي بعض المعنى قال :

كتابي ادام الله عزّ مولانا وحالي فيما اعانيه من تمثل حضرته ، وتذكر خدمته ، والمواقف التي سُعدت فيها برؤيته ، وأفدتُ حظها من مشاهدته ، ومقابلة نعم الله عليه وعلى الادب وحزبه بهِ ، والكرم واهله فيه ، حال امرئٍ وقد اوردته الاحلام مناهل امله ، فهو يتلهف تذكراً ، ويتلذذ تحيّرا ، ويناجي النفس تمثلا ، ويراقب المُنى تعللا ، واحمد الله على الاحوال كلها ، واساله قرب الادالة والعقبى السارة واقول

اقولُ وقلبي في ذُراك مخيّمٌ
وجسمي جنيبٌ للصبا والجنائب

يجاذبُ نحو الصاحبِ الشوقُ مِقودي
وقد جاذبتني عنهُ ايدي الشوذابِ

سقى اللهُ ذاكَ العهدَ عهداً من الحيا
وتلكَ السجايا الغرَّ غرَّ السحائبِ

القاعدة الثانية : الموازنة : قسمها الاول ، موازنة المنقود مع سواه من انشاء المؤلف نفسه ؛ كما مرّ بك في الفصل الثالث من الجزء الاول .

مَن طالع كتابات الصابيء تحقق ان هذه الرسالة لا تكون الاّ له ، فطبقتهُ العالية في فنّ الانشاء وهو امير الكلام ، ظاهرة في كل جملةٍ من جملِ هذه الرسالة ، وتمكنها وتوثقها بعضها في بعض ، وتدفق الكلام وانصبابه كانهُ جَود السحاب ، وخلوصه من التعقيد ، وبعدهُ من اللفظ النافر والوحشي ، وخلوّهُ على كثرته من الحشو ، كل ذلك مما يؤيد للناقد العارف بكلام الصابيء ، ان الرسالة رسالته ، وحسبك ما فيها من الالفاظ المنتخبة المناسبة للمعاني ، بحيث انك لو شئت استبدال لفظ واحد بغيره لما وقعت على احسن منه .

والقسم الثاني من الموازنة : موازنة المنقود مع غيره مما هو من نوعه لمؤلفٍ آخر :

دونك رسالة لابي القاسم عبد العزيز بن يوسف [1] وهو

(١) احد كتاب الدنيا الاربعة الذين سماهم الصاحب .

لنرى صورة ابي اسحاق الصابيء ونتحقق صحة هذه القاعدة .

وانت اذا قلبت في هذه الرسالة طرفك واطلت النظر فيما فصّلتهُ منها بحسب القواعد المتقدمة ، ظهر لك في هذه المرآة رجل هو آية الفصاحة وسحبانها ، وعلم البلاغة وعنوانها بل التواضع بجملته ، والاباء بحليته ، والاخلاص مصوّراً ، واللطف مجسّماً ، وقور النفس ، راجح حصاة العقل ، موزون الكلام ، حرُّ الخلال ، متأنق الالفاظ منطيقيّ ، كهل مصون العرض ، وافر الحياء ، قد اعتم بالهيبة وارتدى بالجلال ، وبرز بالطلاقة ورحابة الصدر ، ذاك ابو اسحاق الصابيء رئيس ديوان الرسائل في الدولة العباسية ، وكاتب الخلفاء ، وامين اسرارهم ، وهذه صورة اخلاقه قد انتسختها من رسالته هذه ونشرتها بعد ان طواها العدم ، وابلت محاسنها القِدَم ، وبقي عليَّ ان اضيف اليها شيئاً من غضون الوجه ، لحزن النفس وانقباضها بعد توالي النكبات التي تساقطت عليه ، وخاصةً النكبة العظمى التي حلت به بامر عضد الدولة بن بويه سنة ٣٧٢ او ٣٧٣ هجرية

من المنن ، لأكون ما عشتُ طليقةً من حبائلها وأسارها ، وعتيقةً من مخالبها وأظفارها ، والايعاز باجابتي بما ابتهج لهُ من طيب خبره وحاله ، وامتثلهُ من عالي أمره ونهيه ان شاء الله .

فاذا قرأ هذه الرسالة مَن لا نظر لهُ في فن النقد ، حكم انها من صغيرٍ الى كبير ، أو من صعلوكٍ الى امير ، وذلك لما تضمنته من جمل التعظيم والفاظ التفخيم وعبارات الاستماحة ؛ بيد ان الناقد البصير ، اذا تأملها حق التأمل ، حكم انها من كفؤ الى كفؤ ، وهاك ايضاح ذلك بحسب القواعد الثمان التي وضعتها لك وهي نقد العلاقة الكائنة بين الكاتب وانشائه ، الموازنه ، نقد القائل ، نقد القول ، نقد المقول فيه والمصنوع ، نقد الزمان ، نقد المكان ، بتّ الحكم .

القاعدة الاولى : نقد العلاقة الكائنة بين الكاتب وانشائه ، قد علمنا من الفصل الثاني من القسم الثاني من هذا الكتاب (١) ان مرآة المرء انشاؤه فلننظر اذاً هذه المرآة

(١) الجزء الاول

مياه الوجوه ويحميها ، ويجمّها ولا يقذيها ، وخاصةً من كانت لهُ في نفسهِ المزيّة التي لي على غيري ممن شحطت داره من أوليائهِ وأودّائه بمشاهدتي شخصهِ الشريف ، واعتلاقي حبله الحصيف ، وكوني تحت ظل الدولة والجملة وعصمتهما ، وفي ذمام المماحة والمراضعة وحُرمتهما والاسباب التي هو لها بكرم عهده حافظ ، وبعين رعايته ملاحظ .، وأنفذت درجةَ كتاباً الى مولانا الامير مؤيد الدولة سلكت فيه سبيل العبد اللائذ بمولاه ، والخادم المحتاج الى نداه ، وأشرت الى ما كان سيدي أيَّدهُ الله قدَّمهُ قبل هذا الوقت من ذكري ، وما تفضل ومهّده من أمري ، ورجوت استثمار تلك المقدّمة على يده وبركته ، واستنجاحها بيمن طائره ونقيبته ، وكل ما يتأتى من الجميع محسوب من جماله ، ومعدود في إفضاله ، وزائد في أياديه البيض الزهر ، وعوارفهِ المحجّلة الغرّ ، وسيدي الصاحب أطال الله بقآءه وليّ ما يراه فيما سألت واقترحت ، واشتططت واحتكمت ، جامعاً لي من جاههِ وماله فان تضاعف هذه المحن ، يقتضي مضاعفة ما يطوقنيه

المنزلة في الاستئصال لاحوالنا، وقد توفر قسطي في تأثيرها، بحسب ضني بعرضي وصوني نفسي وبذلي دونها مالي، ووقايتي اياهما بما ملكت يدي، حيث لم اسئل المعونة احداً، ولا سمحت ان استميح مسوَّداً ولا سيّداً، راجعاً الى شيء مما يرجع اليه الناس من موروث تالد ومكتَسَب طارف حتى انتهت مغارمي الى نحو خمس مائة الف درهم، لم يبق لي بعدها ضيعةٌ ولا منزلة، ولا باطن ولا ظاهر فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطرف، وتجحفُ بعد التحيّف، وصادف ما تجدد عليّ منها في الوقت أشلاَءً منهوكة، واعظماً مبريّة، وحشاشة مشفيّة، وبقيّة مودية، فارقتُ الايثار وأطعت دواعي الاضطرار، وجعلت اختار الجهات، واعتام الجنبات، لا نحو منها ما لا يُعاب سائله اذا سأل، ولا يخيب آمله اذا أمّل، فكان سيدي أدام الله عزّه أولها اذا اعددت، وأولاها اذا اعتمدت.

وكتبت كتابي هذا ويد يكاد وجهي يتظلم منها اذ تخطّهُ، اشفاقاً على ماَئهِ مما يهريقهُ، لولا الثقة بانهُ أيّدهُ الله يحقن

ومُقرٌّ له بها اذا دوفع منتحلوها ، فالحمد لله على ان أعطى قوس السيادة منه باريها ، وأضافها الى كفؤها وكافيها ، وفسخ به شرط الدنيا الفاسد في اهدآء حظوظها الى اوغادها ونقض له حكمها الجائر في العدول بها عن نجبآء اولادها ، واياه اسأل سؤال الضارع اليه ، الطالب لديه ، ان يطيل بقاء سيدي الاطالة المترامية ، ويوفيه اقصى المدد المتمادية ، ولا يعدمه التوغل في هضباته على رفاغةٍ من معاشه ، والارتقآء الى درجاته ، في سكونٍ من جاشه ، ولا يبتليه في شيءٍ منها بعثرة ولا هفوة ، وان يبلغه مدى همته العالية المشتطة ، وامنيتي له المنبسطة ، فلا مزيد عليه ايده الله لمفرط مسرف ، ولا عليَّ في هذا لمتطلع متشوف .

واما بعدُ ايد الله سيدي الصاحب فان نوب الدهر تتردد منذ سنين عليّ وعلى اهل صناعتنا المنحوسة بالعراق ، منيخةً بنوازلها ، ملقيةً بكلاكلها ، كالحةً بوجوهها ، كاشرة عن انيابها ، لتعاقب الايدي الوالية علينا ، وتدرجها في الاساءة الينا ، وتزايدها في الفظاظة بنا ، وتجاوزها المنزلة الى

بهما ، على انه لم يستوفِ بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه ، فان للدنيا مواعيد فيه ، لا بد ان ينجزها بمساعيه ، وما أخاف في هذا القول والحمد لله من غلط الفراسة وكذب المخيلة ، ولا بمعارضة المعارض ، ومناقضة المناقض ، ولا اعدم صحة الشهادة ، وقيام الدلالة ، وقبول المستمع ، وتشيع المتبع ، وكفى بعلم الله انني أغتبط بنعمه جلّ وعزّ عنده ، اغتباطي بها اذا كانت عندي ، وأعتقد انها في فنآئه عمره الله مستقرة الوطن قاطنة ، وفي كثير من الافنية قلقة الركاب ظاعنة ، لبعد فضلآء الزمان عن مساواته في استحقاقها ، ومداناته في استيجابها ، واستبداده عليهم بحيازة ما يتفرق فيهم ، واستكمال ما يتقسم بينهم من أصل راسخ ، وفرع شامخ ، وحلم راجح ، وقدر طامح ، وأدب جزل ، ومنطق فصل ، وقريحة ثاقبة ، ودراية صائبة ، ونفس سامية وكف هامية ، وأوصاف لا تعبّر عنها بلاغة الفصحآء ، ولا يحيط بها استحفاز الخطبآء ، ولا تجاريه فيها اقدام النظرآء ، ولا تزاحمه عليها مناكب الاكفآء ، بل هي مسلَّمةٌ اليه اذا توزع مدعوها ،

الغاية من البراعة والصناعة [1] : أعني به أبا اسحاق الصابىء ، وهي رسالة كتبها الى الصاحب أبي القاسم ابن عباد قال :

أنا أعتذر الى سيدي أطال الله بقاءه من تأخر كتبي عن حضرته الجليلة ، بعذرٍ اذا تأمله حق تأمله ، وعرضه على نقده وتمييزه ، وعرف صدق منطقه وخلوص مصدره ، علم انني مواصل بباطن مرادي وان صرمت بظاهر فعلي وملازم بخافي مقصدي وان أخللت ببادي مسلكي ، وهو أنني جرَّبت مكاتبته أيده الله مواظباً عليها مكباً ، ومراخياً بين أوقاتها مغباً ، لاتبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه ، فلما لاح لي ان الاجمام أنفق ، والترفيه أوفق ، ووثقت بان رأيه عليَّ في الحالين محروس النواحي والجوانب ، محمي الشرائع والمشارب ، اقتصرت على ان أتعرف أخباره وأسرّ باستقامتها وانتظامها ، وأتنسم احوالها وأسكن الى اطرادها والتئامها ، وأبتهج أيده الله (كذا) من ذروة مرتبة يعتليها ، وغارب مرقبة يمتطيها ، وان ادل المتحدثين عنهما ، والسامعين

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي

المهتدين ، ومَن تبع الساقط أو المبتذَل من الانشآء نزل عن طبقة المجيدين ، ومَن أكبَّ على قراءة الكلام العالي واللفظ الانيق أطاعه القلم في احتذآء الكتّاب السابقين ، ومَن جعل غرضَهُ صورةً لاحد العبقريين من المصورين ، وأعاد انتساخها ، فلا بدّ وان يأخذ شيئاً من اصابة نظر مصورها ، وان قصّر عن مجاراته في سائرها ، وللتعليم في هذا الباب تأثير شديد في تحسين الذوق وترفيعهِ ، ولهذا تجد البارعين من الاساتذة لا يرضون للتلاميذ غير درس الكتب العالية الطبقة في أبواب الفصاحة والبلاغة من جميع العلوم والفنون ، ولا يسمحون لهم أن يتخذوا من النموذجات ، الاَّ تصاوير أعاظم المصورين ، وتماثيل أكابر النحاتين ، وألحان مشاهير المغنين ، وغير ذلك من أحاسن سائر الفنون .

فاقتداء بهم ، رأيت ان اكسر هذا الفصل على أمثولة جامعةٍ ما تقدم بسطه في هذا الكتاب ، من قواعد الانتقاد وشروطه ، ليجعلها طالب هذا العلم نموذجاً يسترشد بهِ ، وقد اخترت لذلك كلام : مَن تتفق الشهادات لهُ بلوغ

يصورها بعد تعلمهِ قواعد الفن ، او بعبارة اصح، اول صورة ينتسخها، هي احدى الصور التي حازت استحسانه اكثر من سواها ، او كأن يكون صائغاً او نقاشاً ، فأول سوار يصوغه او ينقشه، يكون على شكل السوار الذي استظرفه ، فيضع المحاكى نصب عينيه ، ويعمل على مثاله ، لا توقفهم عن هذا الاحتذاء، صعوبة القافيــة ، أو اتساع الموضوع وتفرعه وبراعته ، أو دقة الصناعة ، بل هم مدفوعون الى ذلك بطبيعة المحاكاة والتقليد ، وبالجملة ، فلا بد للمبتدئين من أهل العلوم والفنون قاطبةً ، من التقليد ، واتخاذ مثال يحذون عليــه ، ونموذج يكون لهم هادياً يسترشدون بهِ ويرجعون في صناعتهم اليه ، ومن المثال الذي اختاروه ، والنموذج الذي آثروه تعلم طبقة ذوقهم ، ودرجة لبّهم ، فمن آثر من الشعر الزجل أو الدوبيت أو المواليا فقد قعد عند عتبة الباب وكان من المنظَرين ، ومن اعتنق طريقة الركيك من شعر المتأخرين ، كان وان عُدَّ شاعراً من المُدخلين ، ومن سلك مسلك كبار الشعراء المتقدمين واستنهج سبيلهم كان من طائفة الذائقين

الفصل الرابع والعشرون

في

الامثولة الجامعة

أو

خاتمة الكتاب

من المعلوم عند أهل العلم والمتفننين ، بل عند سائر أرباب الصناعات ، انه لا بد لمن طلب علماً ، أو مارس فنّاً ، أو زاول صناعةً ، ان يحتذي على مثال واحدٍ او اكثر ، من ارباب ذلك الفن او تلك الصناعة ، وبعبارة اخرى ، ان يقلّد مصنوع احدهم ، كأن يكون شاعراً ، فأول شعر تتمخّض بهِ قريحته ، يكون على مثال القصيدة التي كان لها في عينهِ الحظ الاوفر ومن بحرها وقافيتها ، وقل ان يحيد عن معناها ، اذ اكثر ما يكون غزلاً ، او كأن يكون مصوراً ، فأول صورة

ونبش مستوراتها ، الاّ الناقد البصير ، كان في ذلك نفع لقوم وتبصرة لآخرين . وقس على ما ذُكر سائر ما يتعلق بالسياسة من تنظيم القوانين ، وتعيين الضرائب ، وتقسيم الخراج ، ووضع المعاهدات الدولية ، وتحديد المكافئات والانعامات ، وكثير غير ذلك من الامور التي يأخذ فيها الحيف مأخذه لما ذكر من تنازع أغراض البشر وميل النفوس الى الظلم ؛ بل قد يتخذ بعض الناس بعض الصحف الجوّابة آلةً للتوصل الى اغراضهم بدراهم معدودات ؛ فتنشر عن فضلهم وكمالاتهم وبراعتهم في الفنون السياسية والمناصب التي يرومون بلوغها ، ما يحمّس الجهلة الاغبياء ، على انتخابهم في اغراضهم هذه ، والاستسلام اليهم ، وما لا يكشفهُ من قصورهم وعيوبهم الاّ نقد الناقد النزيه .

فقد رأيت مما تقدم بعض فوائد النقد ، وما ذكرته هنا ليس الا غيض من فيض .

تدبرت هذا القول وضح لك ان المراقبة المذكورة ، وقيد وضبط الاحوال التي ترافق تلك الحوادث الطبيعية ، ثم فصل الجوهر من العَرَض ، لا يكون الا الانتقاد بعينه .

وليس نقد السياسة ، دون نقد الفنون والعلوم في المنزلة ، فعلى محور سياسة الحاكم ، تدور رحى أعمال الامّة ، ولما كان الظلم كامناً في طبيعة الانسان ، كمون النار في الحجر ، الاّ مَن عصمهم الله وقليل ماهم ، كان نقد سياسة الحاكم والوازع ، من افيد الامور وأعظم الاسباب في انتشار العدل وتأييد العمران ، وتشييد أركان الحضارة في جميع الممالك ، والنقد من اعظم الوسائل التي يتُوسل بها في دفع الظلم ولله در أبي الطيب

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فانْ تجدْ
ذا عفة فلعلة لا يظلمُ

فاذا ما نشر الناقد مطويّ عيوب الحاكم من جهله الشريعة أو تجاوزه حدودها ، أو ميله مع هوى النفس ، أو غير ذلك من الاسباب العديدة التي قد لا يتوصل الى معرفتها

الكهرباء المفروكة ، ولا من اشعاع الحرارة ، ولا من ثقل الهواء ، ولا من تمدّدهِ ، ولا من تحليلهِ ولا غير ذلك من ألوف من الاكتشافات والفوائد ، التي كانت وستكون من أثمار الانتقاد .

وقد يزعم جاهل ، ان لا دخل للنقد ، في بعض هذه العلوم ، أو في علم الطبيعيات ، وانت اذا دققت النظر في هذا الزعم ، علمت بطلانه مما حققه علماء الطبيعيات بالاجماع ، بل ان هذا العلم الواسع ، الكثير الفروع ، الشديد النفع والضرورة لحضارة العصر وامتداد العمران ، ليس هو بالحصر الاَّ ثمرة النقد . قال أحد أكابر علماء هذا العصر اسكندر جوهانيس[1] : ان علم الطبيعيات هو علم مراقبةٍ ، ومراقبةُ حادث من حوادث الطبيعه ، يقوم بقيد وضبط جميع الشؤون والاوقات التي جرى فيها ذلك الحادث بدقة ، ثم بمعرفة فصل ما كان جوهرياً من تلك الشؤون لحصولِ الحادث ، مما كان عَرَضياً ، أو مما لم تكن لهُ عَلَاقة بهِ : فاذا

(١) Alexandre Jhoanues

والثمانين للمسيح .

ولو أردت عدّ الفوائد التي حصلت لسائر العلوم من النقد ، لما وجدت الى ذلك سبيلا ، بل لو شئت ايراد بعض الشواهد على ذلك ، لوقعت في حيرة ما بعدها حيرة . أأبدأ بعلم الهيئة وقد ظل الناس ألوفاً من السنين ، يظنون ان الشمس والقمر لخدمة الارض يدوران ؟ أم بعلم الجغرافية وقد كانوا يتوهمون ان الارض ثابتة مسطحة أو اسطوانية الشكل مستقرة على قواعد ؟ أم بعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) وقد كانوا يعتقدون عمر الارض لا يزيد على بعض ألوف من السنين ؟ أم بعلم التأريخ وكانوا يخلطون الحقائق بالاكاذيب والخرافات ويخبطون فيه أي خبط ؟ أم بعلم الكيمياء وقد ظلوا يشتغلون احقاباً متطاولة بخلط القصدير والنحاس والفضة والذهب ، وتذويب هذه المعادن لتحويلها الى ذهب أو فضة ؟ أم بعلم الطبيعيات وقد بقي علماء الارض دهراً طويلاً ، يزعمون ان لا حد لسرعة النور ، ولا يعلمون شيئاً من شرائع الجاذبية ، سوى انجذاب الاشياء الخفيفة نحو

يجهل ولا زيب صفاتها ، والاّ لما تجاسر ان يخدعك بقوله قد تكون هذه تلك ، فقد بلغت نفقتها كما حقَّق المؤرخون أثنين وعشرين الف دينار ، وكان مرسوماً عليها صورة الكرة الارضية بجبالها ، وبحارها ، وأنهارها ، وبلادها ، وبشكل أوضح مكة والمدينة ؛ وكان مكتوباً بجانب كل موقع ، اسمه باحرف عربية ، من خيوطٍ مؤلفة من الحرير والفضة والذهب .

فقد رأيت ولا شك الفرق العظيم الكائن بين طنفستك هذه ، وما ذكره لك البائع الخادع ، فان طنفستك ، ليس بها غير الحرير ، وصورها غير متقنة ، وألوانها ليست بمتناسبة ، وهي دون ريب قريبة العهد ، ولعلها لا تتجاوز القرن السادس عشر ، وهي من عمل مدينة أصفهان .

أما صاحب البرنية ، فلو عرض برنيته على ناقد من نقّاد هذا النوع ، لأوقفهُ على الخدعة التي خدعوه بها ، فان صناعة الخزف لا يمكن أن تتجاوز ، الالفي ومئة سنة من هذا العهد ، وقال بعض المحققين ، ان هذا الاختراع كان في السنة الثامنة

اذا ضربَتْهُ الريحُ ماج كأَنهُ
تجولُ مذاكيه وتدأى ضراغِمهْ
وفي صورة الروميّ ذي التاج ذِلَّةٌ
لِأَبلَجَ لا تيجان الاّ عمائِمُهْ

نعم ان في طنفستك هذه رياضاً وأغصاناً وحمائم ، ولكن أين أنواع الحيوان التي وصفها لنا الشاعر وصف معاينٍ ، كالخيل والاسود ، ثم حروب هذه الاخيرة مع أضدادها ، وأين صورة ملك الروم بتاجه المشار اليه في الابيات ؟ وبعدُ فقد شرح لنا المتنبي كيف كانت تلك المظلة ، فعرفنا انها كانت من الديباج المصور حال نسجه وحياكته ، وكانت مؤلَّفةً من عدة أثواب حيكت ونُسجت لتكون مظلَّةً ، ولما جُمعت وخيطت ، رقموا فوق حواشي الأثواب الموصول بعضها ببعض حبّاتٍ من الابريسم الابيض كالدرر ، بدل السفيفة التي يرقمونها لعهدنا هذا فوق حواشي الأثواب ، لأَمثال هذه الخيمات .

أما طنفسة المعز لدين الله الفاطمي ، فان البائع الماكر

بفلان ، وكأني به وقد عرضها على ابن بجدة هذا الفن من النقادين ، فلا يلبث ان يقول له ، لقد خدعك البائع ، فليس في طنفستك مزية تحقق أوهامك ، فان خيمة الاسكندر كانت كما هو معلوم ، تُرفع على خمسين عموداً مذهَّباً ، وكانت مطرَّزة أو موشَّاة بالذهب وكانت تظلل مئة فراش ، وطنفستك هذه لا تظلل خمسة فرش ، ولا أثر فيها للذهب المطرَّز ، اذن لا يمكن ان يكون بينها وبين الخيمة المذكورة شَبَهٌ . وأما مظلَّة سيف الدولة فلم تكن من هذه الطنافس ، وقد وصفها لنا شاعره المتنبي أحسن وصف فقال

عليها رياضٌ لم تَحُكها سحابةٌ
وأغصانُ دوحٍ لم تُغَنِّ حمائِمُهْ
وفوقَ حواشي كلِّ ثوبٍ موجَّهٍ
من الدرِّ سِمطٌ لم يثقّبهُ ناظمُه
ترى حَيَوَان البرِّ مصطلحاً به
يحاربُ ضِدٌّ ضِدَّهُ ويسالمُهْ

فاعطى كل عضوٍ حقَّه ، وأتم خلقه وتصويره ، واستوفى صنعه بما يقتضيه الوضع الطبيعي الذي صوَّره به . ثم أين حوَّآؤهُ من حوَّآئك ، وسمآؤهُ من سمآئك ، وارض فردوسه ونباتها وحيوانها التي يخالها الرآئي حقيقة لا صورة ، واجساماً لا أوهاماً ، فلم يغفل عن طفيف أو دقيق من أعضآء الحيوان وحركاتها وتنوع ألوان النبات والازهار ، الا أبرزه باتقانٍ هو الاعجاز . ومَن يدانيه في سمو التخيلات ، وشرف التصورات ؛ وهو يريك ان لا جمال في الكون يفوق جمال الجسم الانساني !

ومَن ترى ينظر الى صورته تلك ، ولا يشهد ان أجمل واكمل ثوب يليق بآدمه وحوآئه هو العُرية ، وان لا حسن لثوب في الكون فوق حسن هذا العري ، وأما آدمك هذا وحوَّآؤهُ فما أحراهما بثوبين يستران عريهما ، وباحسان يريش فقرهما .

وقد يعرض عليه صاحب الطنفسة طِنفِستَه ، فيقول له بغير خجل ، لستُ ممن يحسن النقد في هذا الباب ، فعليك

ولا برهان عندهم لتأييد زعمهم ، سوى قول الصحيفة كذا ، أو الكاتب الفلاني .

ولا يخفى ما وراء ذلك من اضاعة المال ، وبخس الحقوق ، والتدرج الى اضمحلال كثير من الفوائد العصرية وحسنات الحضارة .

ولا كالنقد علم يفي بهذا القصد الشريف ، ويقوم بهذه الخدمة النافعة ، فبينا صاحبنا مفتون بصورته يحسب انه قد حاز أعز الكنوز ، اذا بالناقد يصوّب حدة بصره نحو تلك الصورة ، ويجيل فيها أشعة نظره ، ثم لا يتمالك ان يقول له ، ليس في آدمك هذا من النشاط ، والقوة ، والحركة ، وتناسب الاعضاء الصحيحة ، وصفوة الذكاء ، والجلال ، والحياة التي تأخذ بابصار الناظر الى صورة آدم ڤينجي ، وتسترق لبّهُ بما أودعت فيها قريحته السامية من محاسن الصناعة ، ودقة التخيّلات ، واشتمالها على أدق الدقائق ، بحيث انه لم يذهل عن أخفى حركةٍ من حركات العضلات في الجسم كله ، مما قد يعزب عن فطنة أمهر علماء التشريح ،

الاسكندر ، او انها الخيمة المذكورة بعينها ، أو هي مظلّة سيف الدولة ملك حلب ، وان لم تكن هذه ولا تلك ، فهو يزعم انها الطنفسة التي صنعت في القيروان بأمر المعزّ لدين الله الفاطمي ، فجاز عليهم ذلك ودفعوا فيها مالاً جزيلاً ، وهم لا يعلمون من كم سِلك فتلت خيوط نسجها ، ولا بايّ صبغٍ صُبغت . وبذلوا اكثر من ذلك في في برنيَّةٍ من الخزف الصيني ، اكَّد لهم بائعها انها احدى القطع الثمان التي وجدت في نواويس فراعنة الدولة الثامنة عشرة في ثيبة (منذ ٣٤٠٠ سنة) وهؤلاء المشترون الجهَّال المقلّدون ، لا يعلمون شيئاً من طين هذا الخزف ، ولا نوع العجينة الطرية من الشديدة ، ولا كيف تُكبَس وتُطرَق وتُنشَّف وتُصنَع وتُدهَن وتُشوَى ، بل هم لا يعلمون شيئاً من الدهان الذي تُدهن به ، ولا كيف يُصوّر على الاواني الخزفية ، ولا مزية الغضار الشفَّاف البلوريّ من سواه ، وبالجملة لا يعلمون بماذا يتم حسنه ، ولا الاصلي من المقلَّد .

ثم انهم قد يجادلونك في مسئلة من مسائل العلم والسياسة ،

أفرادهم من الاكابر والعقلآء ، يستحسنون ما استحسنوه ، ويغضبون لغضبهم ، لا يتفلسفون، ولا يبحثون عن الاسباب، لم يكن عسراً على بعض المشعوذين من باعة الكلام ، ان يروّجوا بضاعتهم المزجاة في سوق المغفّلين والجهلآء ، وهي أوسع أسواق الدنيا وأكثرها مستامين ، فكثر الزور ونفق المحال ، وبيع الحرام بسعر الحلال ، وقام كثير من أصحاب الصحف دلاّلين في تلك السوق ينادون بأعلا أصواتهم ، مطنطنين مموّهين ، مرغّبين مضلّلين ، وكثر التقليد، وتجاوز الناس حدودهم لما كثر لديهم من المال ، فرام الجزّار تقليد الجوهريّ ، والحائك تقليد التاجر ، بالملبوس والمفروش وغير ذلك ، وعلى الجملة فقد رام الادنى محاكاة الاعلى ، ولا آلة لديهم من الذوق والفهم والعادة ، بل لا آلة لديهم من آلات أكابر الناس وأشرافهم وعلمائهم ، سوى المال ؛ فبذلوا في صورة من تصوير صغار المصورين ، ما يفي بثمن احدى تصاوير لاوناردو دي ڤينجي، لتوهمهم انها اياها، وفي طنفسة معتقة ، اقنعهم بائعها انها قطعة من خيمة عرس

لما للناقدين البصيرين المنصفين ، من شدة التأثير في العقول، بصدق الحكم والاصابة في اظهار أخفى السرائر ، ولا عجب في ذلك فان السهم اذا توجه باستقامة ورُمي بقوةٍ أصاب الغرض ونفذهُ .

ولما قام النقد خصماً شديذ الشكيمة في وجه فوضى الاقلام ، بل في وجه الفوضى بالعموم ، لجم الالسنة عن الهذيان ، وقيد الاقلام عن الجري في ميادين الغلط ، ووضع حدوداً للمُجون والخلاعة لا تتجاوز معاهد الحشمة وثغور الآداب ، وسن شرعاً قويماً لكل كاتب ، عماده احترام القارئ ، ذلك بان يضع نصب عينيه حال كتابته ، ان تأليفه قد يقع في أيدي ذوات الصون والعفاف من ربات الخدور ، وقد يقرأهُ فتيان المدارس ، ويطلع عليه ذوو العلم الراسخ والنقادون ، فيضربون بهِ عُرْضَ الحائط ، أو يجعلون كلامه هَدَفاً لسهام نقدهم ، فلا ينصرفون عنه حتى يمسي ممزّقاً كل ممزّق .

ولما كان هوى عامة الناس في جميع الامم ، تابعاً لهوى

ولما تصدر الانتقاد في مجلس العلوم ، وأُلقيَت اليهِ مقاليد الاحكام ، طفق بالسلطان المنزَل اليه من جماعات المعارف والفنون ، يفصل الخصومات ، ويقضي بتقدّم هذا على ذاك ، وبانكار قولٍ ، ورذل غيره ، وقبول رأيٍ ورفض آخر ، وكشف غامضٍ ، واظهار غلط ، ونقض وهمٍ ، ونشر فضلٍ مطويّ ، واذاعة عيبٍ مستور ؛ وفي كل ذلك كان نافذ الحكم مُطاعاً لا يُعصى لهُ أمرٌ ، ولا تخفى عليه خافية ، ولا يداهن ، ولا يخشى في الحق لومة لائم ، سيبويه النحو وخليل العروض ، ارسطو الحكمة وغاليلاي الهيئة ، جالينوس الطب ورافائيل التصوير ، وعلى الجملة ، فانهُ الجاسوس والعسس ، والشُرْطة والمشتكي ، والشاهدان والقاضي ، يحكم برفع من يريد ، واذلال من أراد.

فهاب سلطانَهُ وسطوة أحكامه ، الحاكم الجائر ، والصحافيّ المخرق ، والكاتب الطائش ، والمؤلف الهاذر ، والشاعر الماجن ، والعالم المضلل ، والمادح المداهن ، والخطيب الغاوي وسائر المتفننين وأهل المعارف ، وذلك

ذلك ، والغرور فاشٍ في كثير من هذا الخلق ، والحسد لا تخلو منه بقعةٌ من الارض ، وحسبك ان تتيقن ، ان الدنيا لا تعدم من وقت لآخر ، ناقداً منصفاً ، وحاكماً عادلاً ، ينصب ميزان النصفَة بين الظالم والمظلوم ، والعالم والمدعي بالعلم غروراً ، فيأخذ كلٌّ منهما نصيبه ولو بعد حين ، فما ضاع حقٌّ على طالبه .

الفصل الثالث والعشرون

في

بعض فوائد هذا الفن الجليل

قد عرفنا مما تقدم ، اننا اذا دققنا النظر تدقيق ناقد بصير في كلام الكاتب ، مكننا ذلك من كشف أسراره ، أي من الوقوف على أخلاقه وأمياله ، والاطلاع على المستور من أحواله ، وبهذه الوسيلة ، ملك النقد زمام الاهواء وتسلط على الافكار .

انتقاده . ولله در القائل

لا يعلم الشوقَ الاَّ من يكابدُه
ولا الصبابةَ الاَّ من يعانيها

وان قلتَ ان العارفين حدودهم من الناس ، العالمين بقصورهم ، المنصفين باحكامهم قليل ماهم ، فمن يردع الناقدين المغرورين ، عن الزيغ والعيث في هذا المطلب الجليل ؟

قلتُ ان قناعة المرء بما عنده ، من علمٍ أو مال ، أو فصاحة أو جمالٍ أو جاه ، أو غير ذلك ، لمما يعصم نفسه عن المعاصي ، فلا يطمح بصره نحوملك سواه ، وبالتالي فلا يتولد في قلبه حسد له من جرى ذلك الطموح فيدفعه الى النقد الخاسر ، والحكم الجائر ، فان كان جاهلاً ، أو مغروراً ، أو لم تكن عنده قناعةٌ ، فلا أقل من خوفه ذم الناس له ، وتصديهم للقدح والطعن فيه ، لشططه وسوء نيته ، فان عدم الحياء ، فسجلّه في عداد الضالّين القاسطين ، واعلم ان ذلك لا يضير علم الانتقاد مثقال ذرة ، فليس على العلم أو واضعه ، ان يقيدا الاهوآء الطامحة ، أو يلجما الانفس الجامحة ، بل من أين لهما

أو لغلطة طبع ، وهذا كله خارج عن وظيفته في تلك الحال ، بل هو دليلٌ علي تعنتُّهِ وتحذلقهِ ، فليست البلاغة من شروط كتب العلوم والفنون ، بل هي كما تعلم من لوازم كتب الادب والخطابة ، والرسائل ، ويُرجع في تعلمها الى كتب البيان ، وأما الزلات النحوية فلستَ تجهل كثرة اختلاف النحويين ، نعم انه يُصار الى الافصح والُمجمَع عليه ، ونقد ذلك يجب ان يكون فيما يكتب لتعليم النحو أو ما يشا كله من الكتب التي تُدرَّس بها تلامذة المدارس ، وأما التنقيبَ عن هفوةٍ نحوية في كتاب من كتب الطب أو الجغرافيا فهو من التعنت بمكان .

وأم الشروط في هذا الباب ان لا يقدم الناقد على الانتقاد ، الاَّ بعد ان يطلب من نفسه ما يطلبهُ من الناس ، فيسومها تأليف كتيّب أو رسالة في الفن الذي يتصدى لنقده ، ثم يعرض ما الَّفهُ على جهابذة ذلك الفن ، فان حكموا له بالاجادة ولم يخطئوه ، وهيهات ! أخذ بالوثيقة في أمره ، واتَّأَد في نقده ، ولزم جادة الانصاف ، لمعاناته شيئاً مما قصد

ومنها وقوف هؤلاء المنتفخين عند حدهم ، فلا يجسرون على التعرض لمن كان أوسع منهم علماً ، وأرفع منزلة في الفضل ، بل اذا دفعهم الغرور الى مثل ذلك ، تمويهاً على القرآء ، فضحهم اسمهم ، لمعرفة الناس ما بين هذا الناقد وذاك المنقود كلامه ، من تفاوت الرتبة في عالم الفضل ، وكان نصيب تصديهم الخذلان ، والاعراض عن مجاوبتهم صوناً للعرض ، ورحم الله شيخنا وهو القائل

ليسَ الوقيعةُ من شأني فان عَرَضتْ
أعرضتُ عنها بوجهٍ بالحيآءِ ندي

اني أضنُّ بعرضي ان يلمَّ به
غيري فهل أتولَّى خرقَهُ بيدي

ومن شروط الناقد ان لا يخرج في نقده عن موضوع الكلام عن الشيء المنقود ، كأَن يأخذ في انتقاد كتاب في الهندسة ، فيتعرض لطبقة عبارته من حيث الفصاحة ، أو كأَن يكون في نقد كتاب تأريخٍ أو علمٍ آخر كالهيئة أو الطبيعيات ، فيتصدى لجملةٍ منه غير بليغة أو لهفوة نحوية ،

وقد جرت عادة لبعض حديثي النقاد من الانكليز والالمان ، ان ينشروا فصول نقدهم خالية من امضاءاتهم ، زاعمين ان شهرة الكاتب ، تؤثر في رأي القاريء ، فان كان من الخاملين ، لم يُعبأ بقوله وان وقع على الصواب ، وان كان من النابهين ، عُدَّ خطأُه فصل الخطاب ، وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة ، اذا كان القصد من الرأي رأي عامة الناس ، واما ان يكون ذلك صحيحاً ينطبق على الفضلاء والخاصة من القرآء ، فهو زعم باطل ، يلزم منه ان جمهور العلماء وغيرهم من الخاصة يجرون على مذهب التقليد بل انهم مقلّدون ، وهذا مردود .

ولهذا فانك قل ان تجد فصلاً في النقد للكتاب من الفرنسيس ، خلواً من الامضاء ويحسن بنا التشبه بهم لاسباب . منها ان الناقد اذا علم ان احكام هذا الفن تقضي عليه باظهار اسمه ، اضطره ذلك الى التثبت فيما ينتقد ، فلا يطلق العنان لقلمه في التهكم ، أو الطعن ، أو السب ، كما جرت عادة في ذلك لبعض المغرورين من مدعي هذا الفن عندنا.

الذي حصلّه .

فوظيفـة الحاكم في النقـد اذن ، ان يكون على بيّنة من أمره ، مشهوداً له بالعـلم الصحيح والملكة الراسخة ، لـكيلا يُعَدّ نقده شططاً ، وحكمه اعتسافاً وخلطاً .

الفصل الثاني والعشرون

في

بعض شروط الناقد ايضاً

ومن شروط الناقد ان يمضي الفصل أو المقالة التي يكتب فيها انتقاده ، لان المساجلة لا تكون الاّ بين الاقران ، فاذا تعرَّض لك بالانتقاد ، مَن هو دونك علماً وأدباً تركته وشأنه ، وبعكس ذلك اذا كان الناقد من أندادك أو ممن يفوقك معرفةً وفضلاً ، وكان عندك ما تدفع به استدراكه تحتم عليك الجواب ، والاَّ عُدَّ سكوتك اعترافاً بصواب تعقبه .

ينتج مما تقدم ان الناقد ، اذا كان مقلداً ، أو خاضعاً لهوى النفس ، أو غير خبير بما ينتقده ، ولم يوازن بين ما ينتقده ، وما هو من نوعه ، كأن يكون ممن يعترف بالفضل لمن تقدم زمنه ، لا لمن تقدم فضله ، فيرى السبق لشعراء الجاهلية جميعاً على المتنبي ، ويصم أذنه عن سحره في شعره وقوله .

ما نالَ أهلُ الجاهليةِ كلُّهم
شعري ولا سمعت بسحري بابلُ

أو كأن يكون ممن يرى الحسن بالمباسم الفلج وان لم يزنها حسن النطق ، أو بحمرة الخدود وان لم تكن من صنعة الخلّاق ، وان الفصاحة بالصوت الشديد ولو كان طبلاً أو بوقاً ، فلا يرى مزية للدرة اليتيمة لابن المقفّع ، ولا لمقدمة ابن خلدون لخلوهما من السجع ، وقد يجد طُلاوة وأدباً لمقامات البديع ، وفيها أمثال الرصافية والدينارية ، وذلك لشغفه بالسجع . ونقص خبرته بما ينتقد ، أو لجهله الموازنة التي هي من دعائم هذا الفن ، أو لغروره بنفسه ، وانتفاخه بالتافه

مهرها الا فقدك ، ولا ثمنها الا بعدك ... وأنت خطبت هذه الكريمة بلؤم نجرك ، وصغرك قدرك .. فخذها مباركاً لك فيها فبئست العروس وزوجها شرٌّ منها.

قلت لو قرأ هاتين الرسالتين ناقد بُلي برذيلة الحسد ، كان للرسالة الاخيرة في صدرهِ رقصة طرب يكاد يطير لها فرحاً ، ولرأى لها كمال الفضل على الرسالة الاولى . وقل مثل ذلك عمن كان متعجرفاً ، أو حزين الطبع ، أو ممن يميل الى اللهو واللذات ، أو غير ذلك من الرذائل والاميال ، فانه اذا انتقد شيئاً مما له في نفسه هوًى ، فقد يرى لهُ الفضل على نقيضه ، بل قد يستنبط لهُ بقوة ذكائه بعض المزايا ، أو أنه يرى بعض عيوبه حسنات ، وان لم يجدها حسنات ، فقد يمر عليها دون ان تتنبه لها بصيرته النقَّادة .

فاذا كنت ممن آتاهم الله صدق النظر في النقد ، ووقفت على كلام ناقد من هذه الطائفة كشفت الامرين ، أي قصور المتفنن وقصور الناقد ، وهذا من أبعد مرامي النقد وأعظم أسراره فتفهم ذلك .

داؤهُ بالقول ، كلا عافاك الله تعالى جهل الناس عرض وجهلك جسم لا يزول الاّ بالفعل ، ولا يقع دواؤهُ الاّ من الكف والنعل ، ولكني انما أردت بهذه الرسالة ان تتوجه عليك الحجة ، وان تنقطع عنك العلاقة والعلة ، وان كانت تردمنك على عين عمياء ، واذن صماء ، وقلب لا يعرف النقصان الاّ في ما له ، ولا يحسّ بالالم الاّ في جسمه ، ولا يجد للنقص مِسّاً ، ولا للعيب وقعاً ، ولقد عفقتُ هذا الكلام بك وضيعته فيك ، ووجهته منك الى من نُزِّهَ عنهُ العتب لغباوته والشتم لحقارته . . . ياغداة الفراق ، وكتاب الطلاق ، يا موت الحبيب ، وطلعة الرقيب ، . . . يا كنيف السجن في الصيف ، يا شرب الخمر على الحشف ، يا جشاء من أكل فجليه ، وفساء من أكل قنبيطيه ، . . يا شماتة الاعداء ، وحسد الاقرباء ، وطوارق الارض والسماء ، وخيانة الشركاء ، وغش الاصدقاء ، ومشاتمة السفهاء ، (وهل بعد هذا الكلام من سفاهة) . . . هذه رحمك الله هدية أهديتها اليك ، بل هدى من العرأس جلوتها عليك . وما

يكون فيّ بعض الذي وصفت او كله ، وفي رسالتي ضعف ما ذكرت أو جله ، ولكن أسألك أن تنظر أولاً الى نفسك ، وتحاسبها بما تحاسب به أبناء جنسك ، فان وجدت فيها بعض ما فيهم من المساوي ، فما أحراك بالكف عن ثلبهم والاقصار عن تلك الدعاوي ، ولعلك ترى في بعضهم من المزايا الشريفة ، ما تتمنى لو تحلّت بمثلها نفسك العفيفة ، وان رأيت انك منزّه عن العيوب وفي ذلك صوابك قضى ، فما أجدرك بان تتّهم عينك بكونها عين الرضى ، وترجع عند ذلك الى حكم لايحابي ، فلعله يعرّفك انك كنت المغرور المتغابي ، وانك لو أنصفت نفسك لاشتغلت باصلاح ما فيك ، ولم تترك مجالاً لغيظ محبّيك وشماتة أعاديك ، ورحم الله امرأً عرف حدّه ، ولم يتعدّه ، والسلام على من اتبع الهدى.

ثم قرأ لابي بكر الخوارزمي من رسالته الى البديهي الشاعر وقد زعم انه عبث به ما يأتي

لست أعاتبك عافاك الله لان العتاب يصلح منك أو يعمل فيك أو لأن جهلك جهل يعالج بالعذل ، أو يداوى

ثم لم يرض للناقل ، الاّ ان يضمهُ في عداد اولاد الزنا ، وختم كتابه متثاقلاً مستعظماً على نفسهِ بسط الاعتذار ، فرأى ان يوسع لذلك ميدانا ، ويتخذ له شاذروانا ، — وبالله هل رأيت أبرد من هذا الشاذروان في هذا الموضع ؟ — ثم لم يقف عند هذا الحد ، كأنه خشي أن تبقى رسالته هذه بتراء من مسك الختام فضمّخها باللعن والنعل والعقرب وجمع في آخر بيت من شعره فيها ، الفساد والزور ، ووكّل بعد ذلك ، الشيخ أبا محمد ، ان يقوم بالعذر عن قلمهِ الذي قعد ، فتأمل

ثم انك تعلم ان الناقدين هم من أفراد هـذا الخلق ، الاّ ان كثيراً منهم ، لم تجتمع لهُ كل الاخلاق الفاضلة ، اذ النقص من الصفات البشرية ، فاذا كان الناقد حقوداً وقرأء الرسالة الآتية

علمت انك انتقصتني وهل في الناس كامل ، واغتبتني ولا يتعمد الغيبة عاقل ، والبست رسالتي من العيوب ثوباً طويلا ، وتمحّلتَ لها من الزلاّت والذنوب عبئاً ثقيلا ، وانا لا ادفعك فيما قلت ، ولا أخاصمك فيما عبت ، فقد

سذاجة الاكابر من الفلاسفة ، مشتملاً على اقصى الكمالات الانسانيـة ، جارياً مع هوى القريحة ، فان قال الغاشية ، لم يفتش عن قافيتها فيقول الآنية ، وان ذكر نعجه، لا يضطره السجع ليقفي لهـا بعجه ، الى غير ذلك مما يأسرُ لهُ الساجع قلمه ، فلم ينكر ما عُوتب عليه ، ولا رمى الناقل بسهام اللعن والشتم ، بل اكدَّ عتبهُ الاول بألطف منه ، ودعمه بوداد اوكد ، وثبّت اخلاصه بقواعد قويه ، وحقق وفآءه ومحبته واحترامه لابن الخطيب حتى لم يدع ريبةً في نفس مستريب.

وأين منهُ الهمذاني وقد وخزهُ صدق العتاب ، فلم يرَ درعاً يتّقي بها اللوم ، ولا سلاحاً يدفع به عن نفسه تلك السعاية ، غير السب واللعن ، فتقلد بتّار اليراعة ، واندفع يوسع الناقل ضروباً من الشتم والسب

فافتتح كتابه بقيضة كلب ، ثم عاذ بأشد الانكار لما نقل عنه ، ثم لاذ بلوم المعاتب ، ثم لم يلبث ان نسب الى معاتبه الجليل ، الاسآءة ، وانه الظالم وهو المظلوم ، ثم لم يكفه ذلك حتى تأفّف من موقف دعاهُ الى المدافعةِ عن نفسه ،

والامن ويحفظ عليكم ما اسبغ من نعمته ويجريكم على عوائد لطفهِ وعنايته والسلامُ الكريم يخصكم من المحب الشاكر الداعي الشائق شيعة فضلكم عبد الرحمن بن خلدون .

فقد يحكم الناقد المائل الى السجع أن رسالة الهمذاني لها السبق بما احكم من اسجاعها ، بيد أن هذا الحكم من شذوذ القواعد ، وانت تعلم ان لكل قاعدة شاذاً ، وهذه الشذوذ لا تكون حجةً لتقويض القواعد ، بل هي تأييدٌ لها كما هو معلوم .

وانت اذا انعمت النظر في الرسالتين المتقدمتين ، وكنت ممن ألمَّ بعلم النقد ، وممن رُزق ذوقاً سليماً ونظراً صادقاً ، رأيت الفرق الكائن بينهما ، ومنحتَ ابن خلدون غايات السبق والتبريز ؛ فانه أتى بالكلام الفصيح الجزل . والتركيب المعجز السهل ، بغير كلفة ولا تقعُّر ، صادراً عن القلب ، معرباً عن الصدق والاخلاص ، دالاً على سلامة القصد والنية ، هابطاً من معالي مكارم الاخلاق ؛ مرتدياً

فلان أعزَّهُ الله ، نفثة مصدور ومثابة خلوص ، اذ أنا اعلم الناس بمكانه منكم ، وقد علم ما كان مني حين مفارقة تلمسان واضمحلال امره ، من اجماع الامر على الرحلة اليكم ، والخفوق الى حاضرة البحر للاجازة الى عدوتكم ، تعرضتُ فيهم للتهم ووقفتُ بمجال الظنون ، حتى تورطت في الهلكة ، ولولا حسن رأيهِ فيَّ وثبات بصيرته ، لكنتُ في الهالكين الاوَّلين ، كلُّ ذلك شوقاً الى لقائكم وتمثُّلاً لأُنسكم ، فلا تظنوا بي الظنون ولا تصدقوا التوهمات ، فأنا من قد علمتم صداقةً وسذاجةً وخلوصاً ، واتفاق ظاهرٍ وباطن ، أثبت الناس عهداً ، وأحفظهم غيباً ، وأعرفهم بوزان الاخوان ومزايا الفضلآء . . . الى ان يقول وافدتُ من كتابكم العزيز الجاري على سنن الفضل ، ومذاهب المجد ما كيَّفهُ القدر من بديع الحال لديكم . . . بعد أن رضتم جموح الايام وتوقَّلتم قلل العز ، وقُدتم الدنيا بحذافيرها ، واخذتم بآفاق السمآء على اهلها ، . . .

والله يلحفكم ردآء العافية والستر ويمهد لكم محل الغبطة

الغايات في تعظيمكم والثناء عليكم والاشارة في الآفاق بمناقبكم ديدناً معروفاً وسجيةً راسخة يعلم اللهُ وكفى بالله شهيدا ، وهذا كما في علمي أسنى ، ما اختلف أوّلاً ولا آخرا ، ولا شاهداً ولا غائباً ، وأنتم اعلم بما تعني نفسي واكبر شهادة في خفايا ضميري ، ولو كنت(١) ذلك ، فقد سلف من حقوقكم وجميل اخذكم واجتلاب الحظ لو هيأهُ القدر لمساعيكم ، وإيثاري بالمكان من سلطانكم ودولتكم ، ما يستلين معاطف القلوب ويستلّ سخائم الهواجس ، فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة ، او إخفار وطن ، ولو تعلّقَ معلقَ ساقِ حرٍّ زرٍّ زور ، فحاشَ للهِ أن يقدح في الخلوص لكم ، او يرجح سوابكم ، انما هي خبيئةُ الفؤاد ، الى الحشر واللقاء ، وواللهِ وجميعِ ما يُقسَم بهِ ، ما اطّلع على مستكنّهِ مني ، غير صديقي وصديقكم الملابس كان لي ولكم ، الحكيم الفاضل

---

(١) نُقل الى ابن الخطيب ان ابن خلدون واجدٌ عليه لما سبق من سعي ابن الخطيب في تحويل رأي سلطانهِ عنهُ . فكأنهُ يريد ان يقول ولو كنت ذلك العاتب او الحاقد فقد الخ

فالصفوُ بعد الكدرِ المُفترَى
كالصحوِ عقبَ المطرِ الصيّبِ
إن أجتنِ الغلظةَ من سيّدٍ
فالشوكُ عند الثمرِ الطيّبِ
أو يفسدُ الزورُ على ناقلٍ
فالخمرُ قد تُعصَبُ بالثيّبِ

ولعل الشيخ فلان أيّده الله يقوم من الاعتذار بما قعد عنهُ القلم والبيان فنعم رائد الفضل هو والسلام .

والرسالة الثانية للعلامة ابن خلدون جاوب بها الوزير ابن الخطيب وهو من اقرانهِ علماً ومنزلةً وهذا نصها :

يا سيدي ونعم الذخر الأبدي والعروة الوثقى التي اعتلقتها يدي .

أُسلّمُ عليك سلام القدوم على المخدوم ، والخضوع للملك المتبوع ، لا بل أُحييكم تحية المشوق للمعشوق ، والمدلج للصباح المتبلج ، وأُقرر ما انتم اعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم ومعرفتي بمقداركم وذهابي الى أبعد

خدمهِ بما ارسوا نارهم ، وورد عليَّ ما قالوه ، فما لبثتْ أن قلت :

وان تكُ حربٌ بين قومي وقومها

فاني لها في كل نائبةٍ سَلْمُ

وليعلم الاستاذ انّ في كبد الاعدآء مني جمرة ، وان في اولاد الزنا عندنا كثرة ، وقصاراهم نار يشبُّونها ، وعقرب يدبونها ، ومكيدة يطلبونها ، ولولا ان العذر اقرار بما قيل ، واكره أن أستقيل ، ابسطت في الاعتذار شاذروانا ، ودخلت في الاستقالة ميدانا ، لكنهُ أمر لم أضع اوّله ، فلم أتدارك آخره ، وقد أبى فلان ايّدهُ الله الا ان يوصل هذا النثر الفاتر ، بنظم مثله ، فهاكهُ يلعن بعضه بعضاً :

مولايَ ان عدتُ ولم ترضَ لي

أن أَشربَ البـاردَ لم أشربِ

امتطَّ خدّي وانتعلْ ناظري

وصِدْ بكفّي حمةَ العقربِ

وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ولا يُعرف ، الشفةُ وسميرها ، وعربدة كعربدة اهل الفضل لا تجاوز الدلال والادلال ، ووحشة لا يكشفها عتاب لحظة ، كعتاب جحظة ، فسبحان من ربَّى هذا الامر حتى صار امرا ، وتأبط شرا ، واوجب عذرا ، واوحش حرّا ، سبحان من جعلني في جنب العدوّ أشيم بارقتـه ، وأستجلي صاعقته ، وأنا المُسآءُ اليه ، والمُجنى عليه ، لكن مَنْ بُليَ من الاعدآء بمثل ما بليت ، ورُمي من الحسد بما رُميت ، ووقف من التوحد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، اعتذر مظلوماً ، وضحك مشتوماً ، ولو علم الشيخ عدد أولاد الجدد ، وابناء العدد بهذا البلد ، ممن ليس لهم همٌّ الاّ في سعاية او شكاية ، او حكاية او نكاية ، لضنّ بعشرة غريب اذا بدر ، وبعيد اذا حضر ، ولصانَ مجلسه عمن لا يصونه عما رقى اليه ، فهبني قد قلت ما حُكي ، أليس الشاتم من اسمع ، والجاني من بلّغ ، فلقد بلغ من كيد هؤلآء القوم ، انهم حين صادفوا من الاستاذ نفساً لا تُستفز ، وجبلاً لا يُهزّ ، وشوا الى

وقد جمع الاستاذ رحمه الله جُلَّ ما يليق ان يتحلى به الناقد عند الحكم ، ولكن يعترض المعترض فيقول هب ان الحاكم كان جامعاً هذه الشروط ، فمن لهُ بأن يجرّد نفسه من ميلها الغريزيّ ، كأن يكون ممن يميلون الى الاسجاع ويقرأ الرسالتين الآتيتين وهما في معنى واحد ، والاولى للبديع الهمذاني كتبها الى رجل ارفع منه قدراً كما يتبين من نصها قال :

ويا عزّ إن واشٍ وشى بيَ عندكم
فلا تمهليـهِ أنْ تقولي لهُ مهلا
كما لو وشى واشٍ بعزَّةَ عندنا
لقلنا تزحزحْ لا قريباً ولا أهلا

بلغني اطال الله بقاء الشيخ أن قيضة كلبٍ وافتـهُ بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصدق ظهوره ، وأنهُ أدام الله عزه ، أذن لها على مجال أُذنه ، وفسح لها فناء ظنه ، ومعاذ الله ان اقولها ، وأستجيز معقولها ، بل قد كان بيني وبين الشيخ الفاضل عتاب لا ينزل كنفه ولا يُحذَف ،

والرابع ان لا يخلط بين ما يرى من صنيع الشخص الذي جعله محلاً لانتقاده ، وما يعلم او يظن من حالهِ في خاصة نفسه ، فان وظيفته في تلك الحال ، ان ينتقد الكلام من حيث هو كلام ، لا من حيث قائلهُ فلان ، فكم من الناس من تظنهم عند الذكر والسمعة شيئاً ، وتراهم عند ما تبلو أقوالهم وعقولهم ، شيئاً آخر .

والخامس ان لا ينظر الى ما بينه وبين من ينتقد كلامه ، من السوابق الشخصية ، من مودة او موجدة ، لان انفعال النفس بالشخص يحول دون ادراك البصيرة واصابة حكمها بحيث يصير الانتقاد تعصباً او تعنتاً ، وهو احد عيوب النقد عندنا ، بل اعظمها وأشيعها واكثرها اضراراً بالعلم والآداب ، حتى ترى المنتقد بينا يتكلم في العبارة مثلاً اذ يخرج الى ذكر العيوب الشخصية ، مما لا دخل لهُ في تلك الحال ، فيعود الانتقاد ضرباً من الشتم والانتقاص ، وتضيع الحقيقة المقصودة من هذا الفن الجليل والله اعلم

فعل الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، وصاحب المثل السائر في المفاضلة بين كل من هذين وابي الطيب المتنبي والاَّ رُدَّ انتقادهُ عليه وعُدَّ جاهلاً او متحاملاً

والشرط الثاني أن يكون بعد علمهِ بحقيقة ما ينتقده ، منصفاً فيما يقولهُ لا يغمط احساناً ولا يموّهُ إساآءةً ، فلا يدّعي للمنتقَد عليه اكثر مما لهُ ، ولا يبخس المحسن أشياآءهُ ، فان ذلك من اعظم مفاسد العلم ، بما يبعث عليه من الاستخفاف بالعلميات ، واهمال التحرّي والتحرز ، او من الانقباض عن العمل ، والاستسلام للقعود والقنوط ، وبما يؤدي اليه من خلط الحقائق على مَن لا اداة عنده للحكم ، فيضيع الحق وراء حجب الهوى وشبهِ الاغراض .

والشرط الثالث أن يتجافى المنتقد عن الغلوّ في المدح والاطراء عند إيراد الحسنة ، او القدح والازراء عند إيراد السيئة ، فان ذلك يؤدي الى الريب في شهادته ويبعث على اتهامهِ بشبهة التشيع او التحامل ، فيُنبَذ كلامه وتسقط الفائدة المقصودة من نقده .

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلةٌ
كما ان عينَ السخط تبدي المساويا

فكيف يتأتى لنا والحالة هذه ان نصدر الاحكام ، فنقول هذا أخطأ وذاك أصاب ، وهذا حسن وذاك أحسن ، وكيف يصح الاعتماد على أحكام هؤلاء الحكام من علماء النقد ، وهم من هذا الخلق ، وفي طباعهم من النقص ما في طباع سواهم ؟ وهل لنا سننٌ جدد ، أو مقياس مستقيم يعصم أنفسنا من الزيغ ، ويرشدنا الى عدالة الاحكام ؟

الجواب قال علامة العصر شيخنا اليازجي رحمه الله(١)

ان أول شروط المنتقد ان يكون خبيراً فيما ينتقدهُ , بصيراً بحسناته وعيوبه لئلا يرسل الكلام عن مجازفة وخبط ، ويخلط بين الحسنات والسيئات ، متمكناً من اقامة البرهان على ما يحكم به ، أو عرضه على قياس العقل والذوق الصحيح ، كما فعل ابن خلدون في انتقاد بعض أقوال المؤرخين ، وكما

(١) مجلة الضياء السنة الثانية صفحة ٢٤٤

كسائر العلوم ، وصدق رأينا في وجوب وضع هذه القواعد لتكون هدايةً للطالب والناقد ، وان القول بأن النقد من الفنون الذوقية والوقوف عند هذه الحجة ، قولٌ لا يدعمهُ برهان ولا هو بالبلاغ .

الفصل الحادي والعشرون

في

وظيفة الحاكم في الانتقاد

من المقرر ان الانسان مهما ترقى في درجات الكمال ، وبلغ من مراتب الاعتدال ، لا يتسنى له ان يجرد الانانية من نفسه ، فاذا مال به الهوى الى ما لا يستحسنه ، لم يكد يجد به عيباً ، وبالعكس فقد يرى عيوباً في المنقود لنقص في ذوقه ، أو لحقدٍ في نفسه على مؤلف الكتاب أو صانع الشيء ولله در القائل .

رونق حسنها كما يظهر بلبس اللون الآخر ، واستشارت المرأة في ذلك خمسين رجلاً من الناقدين البصيرين ، لماخالف عشرة منهم رأي صاحبنا ، وقل في مثل ذلك عن ألوان الطعام . وان رأياً يكون ثمانون في المئة من انصاره ، لهو الرأي الذي يُعوّل عليه ، واحرِ بهِ أن يُجعَل قاعدةً تبنى عليها الاحكام . فاذا صح لنا بعد الذي قدّمته لك ، أن ننتقد ما يتعلق بحاستي النظر والطعم ، ونصدر احكامنا عليهما بموجب القاعدة المتقدمة ، أفما من العجب أن ندافعَ في بت الحكم عند نقد الاعمال العقلية وسائر الصناعات الجميلة ، وكلها كما تعلم خاضعة لاحكام العقل والمقايسة والبرهان .

فقد رأيت مما تقدم بسطه ، أن لا بدّ للناقد من بت الحكم ، ولا تكون الاحكام صحيحة نافذة ، الا اذا صدرت عن اربابها ، أي الحكّام المشهود لهم بالعدل والعلم ، فاذا خالفت قواعد او قوانين ذلك العلم كانت باطلة ، وبعبارة أخرى حيث لا قانون فلا حكم ، فيترتب عن ذلك بطلان زعم القائلين بامتناع وضع قواعد للنقد ، لجعله فنًّا ذا أصول

الانتقاد من بتّ الحكم فيه ، لكان عملنا ناقصاً ، بل لم يكن معنى للانتقاد .

وقد يقول معترضٌ هب انه يسوغ لنا أن ننتقد . فاننا لا نسلّم بوجوب بت الحكم في الصناعات الجميلة ، اذ ان الشعر والنثر والتصوير والنقش وسائر هذه الصنائع هي ذوقية ، ولا جدال في الذوق ، وهل من الصواب أن ننتقد ذوق زيد لانه يحب لبس اللون الاحمر فوق الاصفر ، أو لانه يفضل أكل لحم الفرس على البقر ، ثم نحكم بفساد ذوقهِ لهذه الاميال ؟

فالجواب عن ذلك ان الانتقاد واقع منا في جميع الاحوال ، فبقي علينا أن ننظر ، هل يحق لنا أن نبت الحكم في الامور الذوقية أم لا .

أنت تعلم أن الجدال في الاذواق مسئلةٌ عسيرة ، ولكنها ليست من المسائل التي تعصي صحة احكام الناقد ، لانه متى كان سليم الذوق ، نافذ البصيرة ، وحكم أن اللون كذا لا يناسب هذه الامرأة ، وبعبارة أخرى لا يظهر عند لبسه

من فهم الطالب ، وتزيح النقاب عن وجه الحقيقة ، وتقصر الطريق على الباحث ، وهذه الوسائل ، هي في اكثر العلوم متشابهة ، كالترتيب ، والتبويب ، والمقابلة ، والحكم ، وقد كان هذا التقليد من اعظم اسباب نجاح العلوم والمعارف ، وبلوغها أعلى مراتب الترقي ، وبين التقييد والتقليد بونٌ بعيد ، فاذا تُرك العنان للاذهان الصافية والقرائح السيّالة في ميدان التقليد على الوجه المشروح ، وكان اصحابها من ذوي القدم الراسخة والذوق السليم والمدارك الواسعة في العلوم ، كان الصواب وقف أحكامهم والنفع قرين كلامهم .

واذ قد تقرر ان مذهب التقليد في المباذئ ، والتوسع فيه بما يناسب كل علم وفنٍ ، هو محمود ، فبثُّ الحكم في علم الانتقاد لابدّ منه ، بل هو في هذا العلم اكثر لزوماً ، وأشد ضرورةً من سائر العلوم ، لان الغاية التي يرمي اليها علم النقد ، هي كما علمت ، تمييز الطيّب من الخبيث ، والصالح من الفاسد ، والجيّد من الزيف ، والأحسن من الحسن ، وعلى الجملة تفضيل شيء على شيء آخر من نوعهِ ، فلو جرّدنا علم

يحكم في استبداد العادة ، أي انهُ يُدفع الى تلك الاحكام باستحكام العادة من نفسه ، قلتُ وما فعلُ العادة في بدويّ القفر ، عند استطابتهِ رائحة الورد أو غيره من الروائح الذكية التي لم يعتدها ، وكرههِ بعض الروائح الخبيثة التي لم يكن شمها ؟ ومن أين أتت العادة للطفل ، أن يفرح ويبتهج عند وقوع نظرهِ على بعض الالوان اللطيفة ، وأن تظهر عليه علائم الانقباض والكدر عند النظر الى اللون الاسود ، او ما يقرب منه من الألوان القاتمة ، وأن يستطيب الحلو ويستكره البشع من المشروب ؟ الى غير ذلك من الاحوال والشؤون الكثيرة التي لا حكم فيها للعادة وانما هي غريزية في الانسان .

بقي الجواب عن مذهب التقليد ، اذ يزعم المعترض انه مما يصدّ عن الترقي في سلم الحضارة ، فاعلم انه بزعمهِ هذا حصر المعنى وعكس الموضوع ، لان مرادنا بالتقليد ، ليس هو تقييدنا بتقليد العلماء في كل ما قالوه وحددوه ، بل هو التطريس على آثارهم في استنباط الوسائل التي تقرب المطلوب

بالزمان ، وبعضها بالمكان ، وبعضها بالحاكم .

واذا كان يحق لنا أن نبتَّ الحكم بالتفضيل والترجيح على الكائنات العالية وغيرها ، مما ليس فيه يدٌ للانسان . كالاجرام السموية وحركاتها ، والمعادن الارضية ومنافعها ، وعلى بعض ما فيه للانسان يدٌ بالتحسين والتكثير كالنبات ، فلمَ لا يجوز للمرء أن يحكم بترجيح وتفضيل عمل مخلوق نظيره ، ونتيجة خاطر بشرٍ مثله ، على ما كان من نوعه من الاعمال العقلية أو الصناعات الجميلة ؟ أوَليس ان هذا الزعم في نهاية الغرابة ؛ وان كان كما يزعم المعترض ليس للعاقل أن يقول باستحسان ما رآهُ جميلاً ، وكراهة ما مجَّهُ ذوقه من الاطعمة ، وتفضيل ما استطابهُ من الروائح على ما سواه ، والانبساط الى ما يطربه من الاصوات ، وتفضيله قرآءة البحتري على جرير . ولبس الناعم على الخشن ، وبالجملة أن يحكم بطول ما يراهُ طويلاً ، وقصر ما يراهُ قصيراً ، فما الفائدة من هذه الحواس المخلوقة ؟ وما هو انتفاعهُ منها ؟ وهل في قدرة العاقل أن يعطّل حواسهُ ويكذّب مخيَّلته ؟ وان قيل انه

وانه وان كان نيوتون قد بت الحكم في شرع الجاذبية على النظام الشمسي، فهل يلزم من ذلك ان نحكم بترجيح البحتري على أبي تمام ؟ ويتقدم ابن خلدون على الماوردي ؟ ويقول اننا اذا تبعنا مذهب التقليد هوى بنا الى دركات اغلاط فاضحة ورجع بنا القهقرى . فصدنا عن الرقي الذي هو ضالة الحضارة العصرية

فأجيب عن ذلك . ان قول المعترض ان أحكام علماء الطب والنبات وسواهم ، ليست في محلها ، غير صحيح ، بل لو كانت نسبية كما يزعم ، لما وجب ان نمنع الحكم على ما حكموا به ، وذلك لان أحكامهم هي نتيجة شاهدي الحسّ والعقل . وهما أعدل الشهود عند العاقل .

فالحكم بأن الكينا اقطع للحميات من البن مثلاً . وان الارض العذاة أو الاريضة سيرٌ من الارض الغمقة أو السبخة ، وان تغريد البلبل اطرب في الاذن من نهيق الحمار ، هو حكم يؤيده الحس ، ولا يقدح فيه انه نسبيٌّ ، اذ كل أحكام الانسان نسبية ، لعلاقة بعضها

الحاصلة منه للعليل، وكذلك أفضلية النبات متوقفة على الثمرة المتحصلة منه ، وأفضلية التربة ، على جودة محصول زرعها ، بل قد ينكر المعترض الافضلية بتةً ، فيقول ان الفائدة التي حصلت من العلاج هي نسبية ، أي بالنسبة الى نوع العلة ومعارف الطبيب ، ومثل ذلك ثمرة النبات وافضلية التربة ، ولهذا نعوا على العالم الشهير بوُفّون حكمه على رتب الحيوان قياساً منه على كثرة انتفاع الانسان منها أو اقليته ، اذ قد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة الى الانسان وانتفاعه من تلك الحيوانات ، ولكنه ليس بصحيح بالنظر الى الحقيقة التي هي غرض العلماء ، فالغزال ليس أجمل من الحمار، والجرذ غير أقبح من الارنب، وانما هذه الحيوانات في نظر علماء الحيوان، هي ما هي ، فلكل منها رتبة وخاصية ليست للآخر ، ولا يحق للانسان ان يرفع ويخفض ويعين منزلة هذه فوق منزلة تلك .

ثم يقول المعترض وهب ان بتّ الحكم عند علماء سائر العلوم واجب ، فلا نسبة بين العلوم الطبيعية والعلوم الادبية ،

في غريزة الانسان حب التقليد ، فهو يحب أن يقلد اعمال الطبيعة أو الخالق ، وقد رأى بعض العلمآء بعد المراقبة ، أن حب التقليد غريزي في بعض الحيوان ايضاً ، وقد تمادوا فقالوا انه موجود في بعض أصناف النبات .

ولما كان هذا حال الانسان ، فكان ميله الى تقليد أبناء جنسه اعمّ ، وحبه تقليد من يستحسنه من معارفه أوأقاربه أخص ، وبالتالي فان العلماء العقلاء لا تضلهم الانانية فتزيغهم عن اتباع الهدى ، ولذلك تراهم يقلدون بعضهم بعضاً فيمايرونه مفيداً ، وقد رأينا من صنع بعض النقادين بل اكثرهم ، انهم بتّوا أحكامهم على المنقود ، كما يبت سائر العلماء أحكامهم فيما يعرض لهم من المسائل العلمية ، ألا ترى كيف يبت الطبيب حكمه في فائدة العلاج كذا وأفضليته على سواه من العلاجات الموصوفة لاحدى العلل ؟ ومثله النباتي كيف يحكم بأفضلية نبات على نبات وتربة على تربة .

الا انه يعترض على هذا الشاهد فيقال ان بتّ الحكم في افضلية علاج على علاج ، متوقف على نتيجته ، أي الفائدة

النقد ، ولعلّ هذا أحد الاسباب التي وقفت في سبيل تعيين طبقات الشعرآء ، لما يحول دون ذلك من العقبات .

واعلم أن طائفة من العلمآء ينكرون بت الحكم على المنقود ، لمزاعم سأذكرها لك ، بيد أن مزاعمهم هذه منقوضة بما سأقدمهُ لك من البراهين الواضحة .

لا إخالك تجهل أن الانسان ما برح منذ وجوده في هذا الكون ، خاضعاً لنواميس الطبيعة يحتذي مثالها ، وهي كانت ولم تزل ولن تزال ، المدرسة العليا لهُ ، تلقي عليه كل يوم من الفوائد ، ما يزيدهُ دربةً وعلماً وفهماً ، وكما انه يستفيد من الكليات ، لهُ فوائد من الجزئيات ، ومثلما يتمنى محاكاتها بالاصول ، يجتهد أن يحاكيها بالفروع ، ومعاكسة الطبيعة في اعمالها ممتنع ، بل الساعي ورآء ذلك يُعدّ أحمق ، ألا ترى أن المصور الذي يصور لنا بستاناً أرضهُ زرقآء ، وسمآؤهُ خضرآء ، وأصول اشجاره وجذورها من فوق ، ورؤس أغصانها في التراب ، نحسبهُ مجنوناً ، وما ذاك الاّ لاننا نرى الحسن هو فيما أحكمت يدُ الخالق ترتيبه ووضعه ، أو لان

يغوصوا عليها، ونفيسة لم يصلوا اليها، فكأن هؤلاء المغرمين بالشيح والقيصوم والاباعر من أدبائنا المقلدين، وعلماء الفرنجة المستشرقين، لا يرون الاحسان، الا فيما اخلقته يد الازمان، ولا يستجيدون الكلام، الا اذا تعبت في تحصيله الافهام، وبات القارئ يقلّب معاجم اللغة ليفهم معنى كلمة أو بيت كهذا: للشنفري:

دعستُ على غطش وبغش وصحبتي
سعارٌ وإرزيزٌ ووجرٌ وافكلُ

فلعمري لقد ساء فهمهم، وضلوا عن الذوق الحسن. فان مثل هذه المعاني الغثيثة والالفاظ التي تنفر منها المسامع وتشمأز النفوس، لو جاز لاصحاب الذوق من العرب أن ينكروها ويعدوها لغة أخرى بربرية، لما تأخروا عن ذلك، وقد طال بي الكلام في هذا المعنى حتى كاد يحيد بنا عن المقصود.

اذاً لا يمكن الحكم على طبقة الشاعر وتنزيله في طبقة معينة، الاَّ بعد النظر في شعره جميعه او اكثره، ونقده حق

فهو ما بينَ عمر يوم ٍ طويلٍ
يتلظى وعمرِ يوم ٍ قصيرِ
لا أقولُ المسيرُ أرّق عيني
قد تناهى البلاء قبلَ المسيرِ

وقول المحدث الآخر

يسألُ الربعَ عن ظباء المُصلّى
ما على الربع لو أجابَ سؤالَه
ومحالٌ من المحيل جوابٌ
غيرَ انَّ الوقوفَ فيهِ عُلالَه
هذه سنَّةُ المحبّينَ من قبـ
ـلُ على كُلّ منزلٍ لا محالَه

وقول الآخر

مددتُ الى الودَاعِ يداً وأُخرى
حبَستُ بها الحياةَ على فؤادي

وألوف من أمثال هذه الابيات التي لو صُوّرَ اللطف لكان اياها، ولو تجسم الشعر لما كان غير معناها، وأيَّ فريدة لم

لها فَخَذانِ أُكمِلَ النحضُ فيهما

كأنهما بابا منيفٍ مُمرَّدِ

من التشبيه البديع الذي لا تصل اليه مدارك المحدثين ، وقس على ذلك سائر أشعارهم الاَّ القليل النادر ، وأين هم من قول هذا المحدث .

نرى عِظماً بالبينِ والصدُ أعظمُ

ونتَّهِمُ الواشينَ والدمعُ منهمُ

ومَن لبُّهُ مع غيرهِ كيف حالُهُ

ومَن سِرُّهُ في جَفنهِ كيفَ يكتُمُ

وقوله

املَّتُ ساعةَ ساروا كشفَ مِعصَمِها

ليلبثَ الحيُّ دونَ السيرِ حيرانا

وقول المحدث الآخر .

ما لمن وكَّل الهوى مقلتيهِ

بانسكابٍ وقلبَهُ بزفيرِ

وسجنجل وقميص مقدّد ورضام وطلخام ، ليست مما يُفاخر بها أو يؤسف لفقدها من شعر المحدثين والعصريين ، وان كانوا يريدون بالعبقرية الشعرية ، تراكيب جملهم بمعانيها البدوية فليس في قولهِ .

ويوم عقرتُ للعذارى مطيتي
فيا عجباً من كورِها المتحمَّلِ
فظلَّ العذارى يرتمينَ بلحمها
وشحمٍ كهُدّابِ الدمقسِ المفتّلِ

من كبير أمر ، فضلاً عما يحظر على الشاعر العصري من ارتكاب الضرورات التي في مثل قوله : ويوم عقرتُ :
وليس في قوله

ترى بَعَر الارامِ في عرصاتها
وقيعانها كأنه حبُّ فلفلِ

من العبقرية الشعرية ما يعلو عن قرائح المحدثين أو المعاصرين ، ولا في قوله

مفلقون ، وهذا موافق لما قاله عبد الله بن قتيبة المتقدم ذكره ، ومخالف لما يراه كثير من علمائنا اهل التقليد ، وبعض علماء الفرنجة من المستشرقين ، الذين تمادى بعضهم أو اكثرهم ، فزعم ان الشعر العربي ، فقد رونقه وطلاوته بعد الجاهلية ، وان العبقرية الشعرية ، قد ذهبت بذهابها . ولا ادري ماذا يُريدون بالعبقرية الشعرية ، فان كان ذلك في المعاني ، فلا ريب أن معاني المخضرمين ومَن بعدهم من المحدَثين ، الذين ذاقوا طعم الحضارتين الاموية والعباسية ، هي أرفع من تلك المعاني البدوية الخشنة ، وقد قصرت على العيس والطلل الداثر ، والحدوج والصحراء والخدروف والسباع ، والجلمود والاعصار وأمثال ذلك ، وان زعموا انها في الاوزان ، فان اشعار هؤلاء المحدثين أصح وزناً وقد اخترعوا بعد الجاهلية أوزاناً لطيفة جداً ، كما يشهد بذلك كل ذي ذوق سليم ، وان كانوا يرون العبقرية باللفظ الوحشي ، واسماء الاماكن المهجورة في الصحاري والفلوات ، فامثال حومِل وتوضِح والمقراة وحومانة الدرَّاج وخولة وعقنقل

باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيتُ كلاً حقَّه ، ووفرت عليه حظه ، فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم زمن قائله ، ويضعه موضع متخيّره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب لهُ عنده ، الا انه قيل في زمانه ورأى قائلهُ ، ولم يقصر اللهُ الشعر والعلم والبلاغة ، على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده . انتهى كلامه ، ولم يذكر شيئاً عن الشعرآء وطبقاتهم ليكون حجة في هذا البحث .

فقد رأيت كيف انهم لم يتفقوا على طبقات الشعرآء ، ولا وقع اجماعهم على طائفة منهم ، ولا رتبوا ابواب الشعر ، فقولنا زيد شاعر من الطبقة الاولى في الرثاء ، يُفهم منهُ انه من طبقة الخنسآء أو الشريف الرضي او المتنبي وأمثال هؤلآء ، اذ في الحقيقة لا يمكن تحديد طبقات الشعرآء لكثرتهم ، ولأنهُ نبغ في كل عصر عند العرب ، شعرآء

التشبيه على جميع فنون الشعر . وطائفة أخرى تقول بل الثلاثة الاعشى والاخطل وأبو نواس ، وهذا مذهب اصحاب الخمر وما ناسبها ، قال ابن رشيق ولما كان المشاهير من الشعرآء كما قدّمت اكثر من أن يحصوا ، ذكرت من المقلّين ، من وسع ذكرهُ في هذا الموضع ، وعدّ جماعة منهم طرفة وعبيد بن الابرص وغيرهم .

وقال عمر بن شبَّة في طبقات الشعرآء للشعر والشعرآء أوّلٌ لا يوقف عليه ، واختلف في ذلك العلمآء وادّعت القبائل كلٌّ قبيلة لشاعرها انهُ الاول .

وقال ابو محمد عبد الله بن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعرآء : وأخبرت فيه — أي في كتابه المذكور — عن اقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسَنُ لها الى غير ذلك : الا انه لم يذكر من ذلك الا قليلاً ، وعلى سبيل العَرض كما يُرى من مطالعة كتابه ، وقال أيضاً وهو قول في غاية الاحسان : ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلّد ، أو استحسن

وتعيين طبقة المتفنن ، وهذا التنزيل قد لا يكون في الاكثر الاّ على وجه التقريب وصيغة التشبيه ، كقولنا زيد شاعر من الطبقة الاولى في الرثآء ؛ فان قلت ما هي طبقات الشعرآء ، ومَن حدّدها ، ومن بوّب الشعر لأبواب ؟ كان جواب سؤآلك هذا سلبياً ، اذ فيما نعلم لم تُحدّد طبقات الشعرآء باجماعٍ ، قال السيوطي في المزهر : وكان الحذاق يقولون الفحول في الجاهلية ثلاثة متشابهون زهير والفرزدق والنابغة ، والاخطل والاعشى وجرير ؛ وقال قتيبة بن مسلم أشعر الجاهلية امرؤ القيس وأضربهم مثلاً طرفة ، وأما شعرآء وقته فالفرزدق أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والاخطل أوصفهم ، وقال ابن رشيق : طبقات الشعرآء اربع جاهليّ قديم ، ومخضرم ، — وهو الذي أدرك الجاهلية — واسلامي ، ومحدث ، ثم صار المحدثون طبقات ، أُولى وثانية على التدريج : وقالت طائفةٌ ، الشعرآء ثلاثة ، جاهلي ، واسلامي ومولّد ، فالجاهلي امرؤ القيس ، والاسلامي ذو الرمة : والمولد ابن المعتزّ ، وهذا قول من يفضّل البديع وخاصّة

الفصل العشرون

في

قاعدة بت الحكم

هذه القاعدة تنقسم الى قسمين : الاول الترجيح : والثاني التنزيل .

أما الترجيح فهو التميز بين فاضل ومفضول ، او حسَنٍ وأحسن ، وهو الغالب ، اذ قلَّ أن تجد بين البشر من انفرد بفنّ ، بحيث لا تستطيع أن توازنه مع سواه ، فبعد أن يعرض الناقدُ المنقود على القواعد المتقدمة ، ينظر فيما كان من نتيجة موازنته ، فان ترجَّح عنده ان المنقود فضل مَن وازنهُ به في مزيَّةٍ او اكثر ، ورآهُ بالجملة راجحاً ، بتَّ حكمه في ذلك ، ولهذا السبب يُسمى هذا القسم من الحكم بالترجيح .

وأما التنزيل فهو ترتيب الشيء ، وتحديد درجته ،

وقد أطلت الشرح في هذا الباب ، لاني لم أجد مَن تكلم به من كتّاب العرب غير ابن خلدون ، وكلامهُ كما رأيتَهُ في صدر هذا الفصل ، قد لا يقنع المعاند ، بل ان كتّاب الافرنج انفسهم ، لم يفَصّلوا في هذا المعنى التفصيل الشافي ، وانما جلّ كلامهم فيه ، يرجع الى فعل الهوآء وما ينجم عنهُ في صحة المستعمرين منهم في الاقاليم المختلفة ، وهو بعيد عما نحن بصددهِ ، وقد بحثت كثيراً فلم أهتدِ الى مؤلف شافٍ بهذا المعنى .

ويتحصل مما تقدم بسطهُ ان قاعدة نقد المكان هذه تنقسم الى قسمين ، الاول البحث عن مسقط رأس المتفنن وبيئَتهِ . والثانى عن طبيعة هوآء ذلك الاقليم ، وموقعه الجغرافي وسائر ما يتعلق بتلك البيئة .

واذ قد عرفت الآن سرَّ المكان ، فقد علمت ولا شك قيمة نقد هذه القاعدة من فنّ النقد ، وما لها من جزيلِ الفائدة فتنبه لذلك . واللهُ أنبتكم من الارضِ نباتاً .

وعلى هذا النحو يجب ان تُقاس العقول والقرائح في البشر ، فاذا نظرت الى ما اعتور البلاد اليونانية والرومانية والاقليم الشامي ، من توالي الخراب والحريق والنهب في الحروب التي تكررت في كثير من تلك القرون ، والزلازل والاوبئة والمجاعات والثورات والمهاجرات وانتقال الغرباء وتوطنهم بديل أهلها الاولين ، وما تعاقب عليها من الظلم والاستبداد ، اتباعاً لاحوال تلك الازمنة ، اذا علمت ذلك كله ، لم تعجب من فقد أمثال تلك العقول الثاقبة وهاتيك القرائح العبقرية ، التي يجب ان تتعاهد بالصون والتكريم ، والعناية في التربية والتعليم ، وقد رأيت كيف انه لما ساد عدل الحكومة في الاقطار الشامية ، ظهر في اثرهِ الانبعاث العلمي ، وبالتالي عادت أرضهُ الى طبيعتها فأنبتت ذوي العقول الراجحة ، والاذهان الصافية ، والهمم العالية ، شأن التربة الجيدة متى أُحسِنت فلاحتها اخصبت بالجيد من الغلة ، ودونك إيطاليا وما كان لها في الفنون من الشأن المبين ، في هذه السنين .

والطب وعلماء طبائع الكائنات، وفي جملتهم اكثر المتكلمين بالتولد الذاتي ، انه لا بدَّ من وقوع أمور طبيعية موافقة يكون وقوعها مساعداً في تحول الطبقات في القشرة الارضية ، ونمو النبات وتنوعه وتميره ، وانتقال المرض والعدوى به ، وحصول التولد الذاتي الذي قالوا به ، الى غير ذلك ، وانه اذا لم تقع تلك الامور ، أو تصادف تلك الاحوال ، امتنع حصول هذا التحوُّل والانتقال ، كأَن تزرع حنطةً أو شعيراً دون حرث الارض ، أو تغرس نخلة دون ان تحفر لها ، أو ترجو غزير اللبن من بقرة أصيلة ، دون ان تطعمها وترعاها في أرض خصيبة الى غير ذلك مما كان من أمثاله . لان التربة مهما بلغت من الجودة ، لا تجود بالغلة ، ولا تأتي بالثمر الجيد ، ما لم تحرث وتفلح ، والنخلة لا تقوى وتثمر ما لم يحفر لها وتغرس غرساً صالحاً ، والبقرة لا تظهر اصالتها ويغزر لبنها ، الا اذا عُلِفت علفاً موافقاً ، وحبّة الحنطة مهما كان أصلها طيباً ، لا تأتي بالمئة من الحب ، ما لم تحرث لها الارض الجيدة حرثاً حسناً كما هو بديهي .

وأصل فاتحي الاندلس والنازلين به واعمالهم الباهرة ، لرأيت انهم اهل الاقليم الشامي ، وقد كتب في هذا المعنى المقريّ الاندلسي صاحب نفح الطيب ، ما لا أرى بداً من نقله هنا ، قال في ذكر الاسباب الداعية لتأليف كتابه ما نصه :

أولها ان الداعي لتأليفه أهل الشام أبقى الله مآثرهم وجعلها على مرّ الازمان مديدة ، **ثانيها** ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام ذوو النجدة والشوكة الحديدية ، **ثالثها** ان غالب أهل الاندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطناً مستأنفاً وحضرة جديدة ، **ورابعها** ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها وشبهوها بها في القصر والنهر ، والدوح والزهر .

بقي القول ان الارض التي انبتت ذلك النبات وأثمرت تلك الثمار ، أو المكان الذي انبت تلك الافهام النيّرة ، والعقول الوافرة ، والاحلام الراجحة ، على م ضنّ بذلك قروناً متطاولة ؟ فهل تغيرت طبيعة الارض ، أم اختلف سرّ المكان ؟ أجيب انه قد تقرر عند علماء طبقات الارض (الجيولوجيا) والنبات

العربي ، ودواوين حكومتها ومحاكمها عربية ، ولا سيما وقد مهّد محمد علي باشا رحمه الله من سبل المعارف والحضارة ما مهّد ، وبدا بدأ آت كان من حقها ان تُختم بخير الخاتمات ، غير ان مصر بالرغم من ذلك كلهِ ، كانت مقصّرةً في بكرة هذه الهبّة وعُدّت مع المتخلفين .

بيد انها كانت أوفر حظاً من ذينك الصُقعين اذ اصبحت لعهد كتابة هذه السطور ، مجمع علماء العرب وموطن الادباء ، وقد كثرت فيها المطابع العربية ، ونفقت فيها سوق الكتب والمجلات العلمية ، وصحف الاخبار السياسية اليومية ، لما أُبيح لاصحابها من حرية القول في كل فن ، وتوالى فيها طبع الكتب العلمية المفيدة ، من قديمة وحديثة ، وانشئت فيها المكتبة العظيمة المصرية ، وقد جمع فيها أنفس الكتب العربية الخطية والمطبوعة فبشرتنا بمستقبل سعيد ، على ان معظم القائمين بهذه المجلات والصحف والمطابع من علماء وشعراء وكتّاب واصحاب مكاتب هم من أهل الاقليم الشامي .

بل انك لو امعنت في البحث عن الحضارة الاندلسية

ماروك : وهي لهذه الاسباب أحرى من يقوم بهذا الانبعاث وتعضيده ، ولكن يا بُعدَ ما بينها وبين ذاك ، وقد كادت تُعد في عداد الدول البائدة لما استولى على اهلها من الجهل ، فلا حول ولا قوة الا بالله .

وأما تونس فقد كانت في ذلك العهد ، أي في نصف القرن الماضي ، الحكومة الثانية العربية بعد الحكومة المراكشية ، وكان لاهلها اختلاط كثير مع أُمم الفرنج اهل العلوم والصنائع ، فكان من ثمرة ذلك كله ، انهم دانوا للامة الفرنسوية صاغرين ، وأعطوهم صفقة ايديهم طائعين ، وما خلا ما ظهر من آثار شاعرها الكبير الشيخ محمود قبّادو ، لم يأتنا خبر عن عالمٍ من تلك البلاد ، برّز في شيء من العلوم ، فضلاً عن أن تكون له يدٌ في هذا الانبعاث العلمي .

واما مصر فانها بعد هذين القُطرين كانت احق البلاد واجدرها بهذا الانبعاث العلمي ، وهي لم تزل منذ عهد بعيد ، مقصد العلماء من كل أدب ، ومحط رحالهم ومنتجع آمالهم ، وبها الجامع الازهر ، واهلها كلهم لا ينطقون بغير اللسان

وهاتيك الهبات الملوكانية ، تشمل سائر بلاد مملكته الواسعة حرسها الله ، فعلى مَ لم تظهر هذه النهضة العلمية ، في غير البلاد الشامية ؟ أما ان ذلك سرّ المكان الذي نحن بصدده ؟ وقد أوضحتُ فيما تقدم ان أول هذه النهضة كان منذ النصف الاخير من القرن الماضي ، الاّ انها لم تنتشر هذا الانتشار السريع الاّ منذ ثلاثين سنةً أي منذ جلوس جلالتـه على عرش اجداده المعظمين .

على انك اذا دققتَ النظر في هذه الهبّة العلمية وسرعة تقدمها وانتشارها ، تكاد تعدّها عديلة الحضارة العباسية ثم الاندلسية التي حيّرتا العالم بتقدمهما السريع ، بل لعلك ترى لهذا الانبعاث فضلاً على ذاك .

ثم انك اذا أنعمتَ النظر في هذا الانبعاث العلمي رأيت مراكش أولى بأن تكون موطن ظهوره وموضع نشأتهِ من تونس وان لم تكن تونس فمصر ، وذلك لان اهل مراكش وحكومتهم لا ينطقون بغير اللغة العربية ، وهي ذات الحضارة القديمة والصناعات البديعة المعروفة عند الافرنج باسم : سبانو

الشيخ يوسف الاسير رحمهم الله ثم عددٌ وافرٌ هم اليوم من شيوخ العلم والادب في الديار الشامية حفظهم الله .

وكان من آثار هذه النهضة ، ما يرى من ترقي وتسهيل العلوم والآداب العربيـة ، وشيوعها في اطراف الدنيا ، والاقبال عليها ، وَجِدَّتها والحمد لله بعد العفاء ، وشبابها بعد ان ظُنَّ بها الهرم أو الفناء ، وظهورها في مظهرها الحالي من النشاط والاجتهاد ، والفصاحة التي كادت تلحق بعصر الصابئ وابن عبَّاد ، كل ذلك في مدة لم تجاوز الستين من السنين ، مع ما هو مشاهد من نقص المسعفين وقلة المساعدين ، من اغنياء البلاد كما هو الشأن في بلاد الفرنجة .

ولا يُدفع هذا القول بما هو مشاهدٌ من عناية مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان الثاني المعظم بالمعارف ، وتمهيد سبل العلوم ، وانشاء المكاتب التي تعدّ بالمئات لعهد خلافته أعزه الله ، وما يُنفق بأمر جلالته من نظارة المعارف في سبيل العلم ، فضلاً عن الهبات الوافرة التي تَتَفضل بها عظمته على المدارس في كل عام ، لان تلك العناية السلطانية

اما طرابلس فناهيك من مدينة قال في اهلها المتنبي .

اكارمُ حسدَ الارضَ السماءُ بهم
وقصّرتْ كلُّ مصرٍ عن طرابُلسِ

وكم نشأ باللاذقية وعسقلان وصور وصيدا ويافا والقدس وغيرها من هذه البلاد ، علماء وشعراء اعلام ، ومتفننون ذهبت بصناعاتهم الجميلة واسمائهم حادثات الدهر؟ وعلى الجملة فان الاقليم الشامي . مثلما خُصَّ بجودة التربة واعتدال الهواء ، فانه خُصَّ بجودة القرائح والعبقرية وكثرة المتفننين في كل عصر .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، ظهرت النهضة العلمية العربية في بيروت اتمّ الظهور على ايدي علامة عصره ونسيج وحده الشيخ ناصيف اليازجي ، والفاضل المجتهد الالمعي المقدام المعلم بطرس البستاني ، والعالم المتبحر الدكتور كرنيليوس ڤان ديك الاميريكي وتبعهم إمام المحققين فقيد اللغة علامة العصر الشيخ ابرهيم اليازجي والعالم الفقيه الشاعر الكبير الشيخ ابرهيم الاحدب والعالم الشاعر

بلدةٌ مجدُها تواصلَ في الأعـ
ـصارِ مثـل الأعصارِ في مجراها
كلما استدبرتْ من الدهر يوماً
زادَ سطراً على حديثِ علاها

وان كنت قد اطلت القول في حلب وعلمآئها وشعرآئها وصناعاتها ، فذاك لاني اعلم عنها ما لا اعلمه عن سواها ، والا فما الشام وشهرتها البعيدة ، لتقصر عنها ، ولا حماة مما يُغَضُّ منها ، ولا حمص مما يُجهل قدرها وهي مسقط رأس ديك الجن الشاعر المشهور ، ووطن المعلم بطرس كرامة ، احد اكابر شعرآء القرن الماضي ، بل هي منبت الاثلة اليازجية الكريمة واليها يشير علامة العصر المتقدم ذكره في القصيدة نفسها بقوله

وسقى اللهُ ارضَ حمصٍ وحيّتْ
نسماتُ الصبا خصيبَ ثراها
هيَ فردوسيَ القديمُ ومنهـا
ثمراتُ الحياةِ كانَ جناها

وكل شعره من الطبقة العالية ، وكالعالم الشاعر محمد افندي الجابري من أسرةٍ عريقةٍ في الوجاهة ، وكالعالم الكبير والشاعر الشهير الشيخ حسين الغزّي ، والشاعر الشهير نصر الله الطرابلسي الحلبي ، ورزق الله حسون الذي لو قصر نفسه على العلم ، ولم يتعرّض لمفاسد السياسة ، لكان اليوم من أئمة علماء القرن الماضي ، ثم عبد الله المراش العالم الكاتب البليغ ، ثم اخوه فرنسيس المراش الشاعر العالم المشهور الطائر الصيت ، ثم الشاعر الاديب المتفنن انطون الصقال ، ثم الشاعر البارع الاديب جبرائيل الدلال ، رحمهم الله .

ولم اقصد بذكر هذه الاسماء ، وبما ذكرته عن الشهباء تبجحاً بالوطن ، بل هي الحقيقة ابسطها لفائدة التأريخ ، ولعلّ العلماء والفضلاء لا يرون فيما ذكرته شططاً وكفى بشهادة علامة العصر فقيد اللغة الشيخ ابرهيم اليازجي حجة ، وذلك من قصيدة كان بعث بها اليّ فقال عند ذكره حلب .

المرحوم عبده الحمولي المصري ، قد أخذ عن اهل هذا الفن في حلب الشيء الكثير من الاشغال والقدود وانواع الاكرك والثقيل والسماعى وغيرها . وفي حلب كثير من الصناعات القديمة غير ما تقدم .

ولما انقضى القرن الثامن عشر ، ظهر فيها في القرن التاسع عشر علماء اعلام وشعراء مجيدون ، كالعالم الشاعر المفلق الحسيب النسيب الشيخ وفا الرفاعي ومن موشحاته البديعة قوله :

يا مهاةَ البانِ يا ذاتَ الدلالْ
جلَّ مَنْ أبدعَ ذا الوجهَ الجميلْ
غلبَ الوجدُ وليلُ الهجرِ طالْ
وأنا المغرمُ بالفرعِ الطويلْ
قدُّكِ المياسُ لولا الازرُ سالْ
فاكشفي عن صفحةِ الخدِّ الاسيلْ
لأرى طرساً عليهِ رُسما
ناعمُ الوشيِ طريُّ الملمسِ

ونقلا المطبعة الى الشوير ، ولهُ في الفلسفة والمنطق وغير ذلك من العلوم تآليف غاية في الدقة والفصاحة .

وأما الخوري نيقولاوس فكان من الشعرآء المجيدين كما يشهد لهُ بذلك ديوانه وقد كانت لهُ يد بيضاآء في أمر المطبعة المذكورة وطبع الكتب الكثيرة المفيدة فيها .

واذا نظرنا الى الصنائع فانها لم تفقد في حلب مع ما طرأ عليها من الحروب والزلازل والاوبئة والمجاعات وغير ذلك من الكوارث ، فان صناعة نسج الحرير المنقوش صناعة قديمة فيها ، وصناعة الزجاج كذلك ، وفي حلب سوق تُعرف اليوم بسوق الزجاج ، (ويحرفها العامة فيقولون سوق الجاج) وصناعة دبغ الجلود ، وصناعة البنآء وصناعة النجارة من الصنائع التي لم تزل فيها الى اليوم بالغة اقصى الاتقان ، وكذلك صناعة سكب النحاس ، أما الموسيقى فهي وان كانت قد فقدت من هذه البلاد للاسباب العديدة المشار اليها آنفاً ، الاّ ان آثارها في حلب اكثر منها في سواها من سائر البلاد التي تنطق بالعربية ، وحسبك ان الموسيقيّ العصري العبقري

فكان عالماً كبيراً وجهبذاً نحريراً وشاعراً وكاتباً ، بل هو الشعلة الاولى التي أنارت حلب ثم الاقليم الشامي جميعه ثم جازت البحار وانتقلت انوارها الى الديار المصرية ، فأمريكا ، فغيرها من البلاد القاصية ، وله المعجم المشهور باسمه في اللغة ، وكتاب بحث المطالب في النحو والصرف وديوان شعر كبير وغير ذلك كثيراً من المؤلفات العلمية المفيدة الكثيرة[1] التي نشرها بين الناس ، بعد أن كانت كتب علوم العربية أعزّ من بيض الانوق ، خصوصاً عند نصارى هذا الاقليم .

وأما الشماس عبد الله زاخر فكان ثاقب الذهن ، ماضي العزم ، واسع العلم ، وهو روح هذه النشأة وناشرها اذ كان القائم بالمطبعة الاولى العربيـة في هذه البلاد ، وهي مطبعة الشوير من قرى لبنان ، وقيل انه كان يحفر أحرفها الكبيرة بيدهِ على الخشب ، ولما رأى ان الطباعة في لبنان اسهل عليه من حلب ، اتفق مع صديقهِ الخوري نقولاوس المذكور

(١) ومن أحب الوقوف على ذلك فليراجع ترجمتـهُ لحضرة صديقنا الجهبذ الفاضل الخوري جرجس منش الحلبي .

صاحب كتاب الاغاني الذي لم يكتَب في الاغاني كتاب أضخم منه في جميع اللغات ، لم يرَ ان يهديه الى غير سيف الدولة ملك حلب. المشار اليه ، وقد أجازه عليه بألف دينار كما هو معلوم .

ومما أثبتهُ التأريخ ان اليونان بعد فتح الاسكندر هذا الاقليم بقرنٍ واحد ، بدأوا يدرسون فصاحتهم ، على علماء انطاكية ، ويحذون حذوهم في نسق كتابة لغتهم اليونانية ، وما بعد ذلك من برهان على رجحان عقول أهل هذا الصُقع .

وقد كانت الشهباء مبعث حياة العلوم العربية ، بعد ذلك الممات ، ومنشأ هذه اليقظة العصرية ، بعد طول السُّبات ، إذ بعد أن كانت أواخر القرن السابع عشر فترة انحطاط وجهل قد خيَّم ظلامها على كل البلاد التي تنطق بالعربية ، ظهر في فجر القرن الثامن عشر نيّران عظيمان في سماء الشهباء هما المطران جرمانوس فرحات والشماس عبد الله زاخر وتلاهما نيّرٌ ثالث هو الخوري نيقولاوس الصائغ ، أما الاول

لذلك آثارهم على الخزف والبلور، وقد رأيت منها وعليها صور طير وأرانب وغزلان وكلاب وغيرها، وكلها غاية في الاتقان ودقة التصوير، ويظهر انهم أخذوا هذا الفن عن الفرس أو اليونان.

أما النقش فقد بلغوا منهُ الغاية، وحسبك ما يرويه التأريخ عن المقصورة الاموية، والمنبر في الجامع الاموي في دمشق وعما وجد من مثل هذه الآثار في حلب وبغداد وغيرها من البلاد، وقد كانوا يتفننون في اكثر الصناعات، فمن ذلك ما ذكر في ديوان المتنبي[1] من ان الامير بدر بن عمّار أراد ان يمتحن سرعة خاطر المتنبي فأخرج لعبةً قد اعدها، لها شعر في طولها تدور على لولب، واحدى رجليها مرفوعة، وفي يدها باقة ريحان، وهي تُدار على الجلّاس، فاذا وقفت حذآء الانسان نقرها فدارت.

أما صناعة الموسيقى فلم يذكر المؤرخون حذق الفارابي ومهارته فيها، في غير مجلس سيف الدولة، وحسبك ان

(١) راجع صفحة ١٦٠ من العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب.

الكاتب الذي قيل فيه ، بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد ، كان حلبياً ، ولم تحوِ بلد من البلاد في نحو المئة الرابعة للهجرة ، ما حوته حلبَ من المدارس ، فقد كان بها أربعة وأربعون مدرسة ، منها ثلاث لدرس الطب ، هذا كله ، ولم تكن دار خلافة ، وكان يقصدها العلماء والفضلاء من أقصى البلاد ، لطلب العلم والفوائد ، كالفيروزابادي صاحب القاموس ، وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان.

وعلى الجملة فقد برز أهل هذا الاقليم بالحذق ، وصفاء الذهن ، والالمعية والبراعة ، وفاقوا سائر من نطق بالعربية ، بأشعارهم ورسائلهم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد اكتُشف في هذه الايام عن كثير من مصنوعاتهم البلورية والخزفية ، ظهر منها لاهل أوروبا ان العرب من أهل هذا الاقليم ، قد بلغوا في هذه الصناعات ، مقاماً عظيماً من المعرفة والاضطلاع ، ولولم يكن التصوير محرماً في الاسلام ، لكان بين أيادينا ، من تصاويرهم وتماثيلهم ما نفاخر به كثيراً من الامم ، ومع هذا فانهم لم يهملوا هذا الفن الجميل ، كما تشهد

الى فن التأريخ ، رأيتَ في رأس المؤرخين ابن عساكر الدمشقي صاحب التاريخ الكبير الذي قال فيه المنذري ان العمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب ، ثم ابن العديم الحلبي وغيرهما كابن خطيب الناصرية وكأبي ذرّ الشهير بسبط ابن العجمي الحلبي وكالشيخ طاهر بن حبيب الحلبي ، ويحي بن حميدة الحلبي صاحب تأريخ معادن الذهب ، وكثيرين غيرهم . واذا قلّبت الطرف في علم الجغرافيا رأيت اسم السلطان العالم المؤيد ابي الفدآء صاحب حماة المولود في دمشق سنة ٦٧٢ في رأس الجغرافيين والمؤرخين الذين استعان بهم الافرنج وبنوا على تآليفهم .

واذا سرّحت النظر في الطب رأيت اسم نجم الدين المعروف بابن الدمشقي ، والشيخ مجد الدين بن سحنون شيخ الاطبآء الدمشقي ، وداود البصير الانطاكي وهو من أفراد البشر الذين امتازوا بالذكاء وسعة العلم .

ولو رمت الاتيان على أسمآء غيرهم في سائر الفنون ، لوجب ان افرد لذلك سفراً برأسه وحسبك ان عبد الحميد

والنونُ في حكم الخواطر مُحدثٌ
والاوليُّ هو الزمانُ المظلِمُ

والقائل

سبحان خالقِنا وِطـاءٌ أغبرٌ
من تحتِنا وله غطـاءٌ أزرقُ
والشهبُ في بحر السمآء سوابحٌ
تطفو لناظرةِ العيون وتغرقُ

ولو شئت احصآء من تقدم هؤلاء الشعرآء من أهل الاقليم الشامي كالاشجع السلمي ومنصور النمري وأبي الفتح كشاجم والصنوبري ومن هم في طبقتهم ، وكذلك من تأخر عنهم كالوأوآء والببغآء وابن عنيّن وابن منير الطرابلسي وابن الخياط الدمشقي ومئات من أمثـال هؤلاء الافراد ، الذين رفعوا ألوية الشعر على سائر البـلاد ، لملأتُ من ذلك صحفاً تدخل في عداد الـكتب الـكبيرة ، ولم يقتصر هـذا الاقليم الشامي على تفردهِ بأشعر شعرآء المولّدين ، بل قد انبت أذكى الافهام وأنبه الفطن في سائر العلوم والفنون ، فاذا نظرت

والقائل

فان كنتَ تبغي العيشَ فابغِ توسطا
فعنـدَ التنـاهي يقصرُ المتطـاولُ

والقائل :

فظنَّ بسائر الاخوان شراً
ولا تأمن على سرّ فؤادا
فلو خبرتهـم الجوزآء خبري
لما طلعتْ مخافة ان تُكادا

والقائل .

خففِ الوطءَ ما أظنّ اديم الـ
أرضِ الاّ من هذه الاجساد

والقائل

العالمُ العالي برأي معاشرٍ
كالعالمِ الهاوي يحسُّ ويعلمُ
زعمتْ رجالٌ انَّ سياراته
تِسقُ العقول وانهـا تتكلمُ

وعواطف نفسهِ الأبيَّة ، وهمتهِ الصاعدة في آفاق المجد ، وطريقتهِ التي هي خلوص الكلام من التقعر والتعقيد ، وانحدارهِ كالسلسبيل من قريحةٍ هي العين الفوارة ، واشتمالهِ على اكثر شؤون الحياة ، من تأريخ وحماسة ، ووصف حروب وقنصٍ وصيد ، وغزلٍ واستعطافٍ وعتابٍ ورثآءٍ ومديح وحِكَم ، وغير ذلك من احوال عصره ، ومستعمل كلام قطره ، وإعرابه عن أخفى حركات نفسه ، مما اصبح به نسيج وحده ، كل هذا على قلة الواصل الينا من شعره ، ولو لم تنبت منبج غيره ، ولم تنجب حلب والشام شاعراً سواه ، لكفى هذا الاقليم به شرفاً ينطح النجوم بِرَوْقَيهِ وعزًّا يقلقل الاجبالا .

وهل كأبي العلآء المعري من فيلسوف أعمى قائل

وإني وان كنتُ الأخيرَ زمانهُ
لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

وهو القائل

فلا تحسبِ الاقمارَ خلقاً كثيرةً
فجملتها من نيّرٍ متردّدِ

ويرجون ادراك العلا بنفوسهم
ولم يعلموا أنَّ المعالي مواهبُ
وهل يدفعُ الانسانُ ما هو واقعٌ
وهل يعلمُ الانسانُ ما هو كاسبُ
عليَّ طلابُ العزّ من مُستَقرَّهِ
ولا ذنبَ لي ان حاربتني المطالبُ

وهو القائل :

سيذكرني قومي اذا جَدَّ جَدُّهم
وفي الليلة الظلماء يُفتَقدُ البدرُ
ونحن اناسٌ لا توسُّطَ عندنا
لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا
ومن يخطبِ الحسناءَ لم يغلهُ المهرُ

ولعلي ذكرت من كلام الامير أبي فراس اكثر مما يستدعيه المقام ، بيد انني كنت منقاداً الى ذلك بجاذب من شعره الرفيع الطبقة وكلامهِ العالي ، ومعانيهِ الشريفة ،

قصرها على مفاخر أسرته . وهو القائل :

زماني كلُّهُ غضبٌ وعتبُ
وأنتَ عليَّ والايامُ إلبُ
وعيشُ العالمينَ لديكَ سهلٌ
وعيشي وحدهُ بفنِاكَ صعبُ

والقائل :

وما هذه في الحب أولُ نظرةٍ
اسأتْ الى قلبي الظنونُ الكواذبُ
ومن مذهبي حبُّ الديارِ لاهلها
وللناسِ فيما يعشقونَ مذاهبُ
رمتني عيونُ الناسِ حتى اظنها
ستحسدني في الحاسدينَ الكواكبُ
ولستُ أرى الاَّ عدواً محارباً
وآخرَ خيرٌ منهُ عندي المحاربُ
فهم يطفئونَ المجدَ واللهُ موقدٌ
وهم ينقصونَ الفضلَ واللهُ واهبُ

فلما خلونا يعلمُ اللهُ وحدهُ
لقد كرمتْ نجوي وعفَّت سرائرُ
وبتُّ يظنُّ الناسُ فيَّ ظنونهمْ
وثوبيَ مما يرجمُ الناسُ طاهرُ
اقولُ وقد ضجَّ الحليُّ واشرقتْ
ولم ادرِ منها للصباحِ بشائرُ
أيا ربِّ حتى الحليَ مما نخافهُ
وحتى بياضَ الفجرِ مما نحاذرُ

وهو القائل :

ففينا لدينِ اللهِ عزٌّ ورفعةٌ
ومنا لدينِ اللهِ سيفٌ وناصرُ
هما واميرُ المؤمنين تسرَّدا
اجاراهُ لمَّا لم يجدْ مَن يجاورُ
وردَّاهُ حتى ملَّكاهُ سريرهُ
بعشرينَ أَلفاً بينها الموتُ سافرُ

وحق هذه القصيدة ان تُسمَّى ايلياذة العرب الاَّ

عليّ نحتُ القوافي من معادنِها

وما عليَّ لهم أن تفهم البقرُ

وهـل كالمتنبي وحسبك به علماً تطأطئ لهُ الاعلام ، وشاعراً بلغ بالشعر العربي غاية التمام ، وهووان لم يكن شامي المنبت والمولد ، فهو شامي الذوق والمحتد ، فقد ترعرع في حلب ، وفيها نشأ وتأدب وفي ذلك يقول :

أحبُّ حمصاً الى خناصرةٍ وكلُّ نفس تُحبُّ محياها

وخناصرة من أعمال حلب وكانت تحاذي قنسرين ، وقوله محياها أي موضع حياتها ، وهو يقول في موضع آخر

كلمـا رحبّت بنا الروضُ قولنا

حلبٌ قصدنا وانتِ السبيلُ

وهو القائل بعد فراقه حلب .

بم متعللُ لا أهلٌ ولا وطنُ . فقد سماها وطنه .

وهل كأَبي فِراس الحمـداني وهو في منزلة المتنبي في لادب ويفوقه في رفعة المقام والحسب وهو القائل :

سائلَ الدهرَ مذ عرفناهُ هلْ يعـ
رِفُ منا الاّ الفعال الحميدا
قد لعمري رزناهُ كهلاً وشيخاً
ورأيناهُ ناشئاً ووليدا
وطوينا أيامَهُ ولياليـ
ـهِ على المكرمات بيضاً وسودا
نحنُ أبناءُ يعربٍ أعربُ النا
سِ لساناً وأنضرُ الناسِ عودا
وكأنّ الالهَ قالَ لنا فيـ الـ
حربِ كونوا حجارةً أو حديدا

وهو القائل

اذا محاسنيَ اللاتي أدلُّ بها
كانت ذنوبي فقل لي كيفَ اعتذرُ
أهزُّ بالشعرِ اقواماً ذوي وسنٍ
في الجهلِ لو ضُربوا بالسيفِ ماشعروا

عطفوا الخدورَ على البدورِ ووكّلوا

ظُلَمَ الستورِ بنورِ حورٍ نهَّدِ

وثنوا على وشي الخدودِ صيانةً

وشيَ البرودِ بمعجفٍ ومهنّدِ

ودررهُ اكثر من أن تحصى في هذا المقام.

وهل كأبي عبادة البحتري — وهو من حلب أو منبج وهي على ساعات من حلب — من قائل

انَّ في السربِ لو يُساعدنا السر

بُ شموساً يمشين مشياً وئيدا

يتـدافعنَ بالأكفّ ويعرضـ

نَ علينا عوارضاً وخدودا

يتبسَّمنَ عن شتيتٍ أراهُ

اقحواناً مفصّـلاً أو فريدا

رحنَ والليلُ قد أقامَ رواقاً

فأقمنَ الصباحَ فيهِ عمودا

كأبي تمام الطائي وهو من اهل جاسم من قرى دمشق وهو القائل في السياسة

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ
في حدّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ

والقائل في الشيب

لو رأى اللهُ أنَّ في الشيبِ خيراً
جاورتهُ الابرارُ في الخلدِ شيبا

والقائل في الحكمة

وضياءُ الآمالِ أفسحُ في الطر
ف وفي القلبِ من ضياءِ البلادِ

والقائل

واذا أراد اللهُ نشرَ فضيلةٍ
طويَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ
ما كان يُعرفُ طيبُ عَرفِ العودِ

والقائل في الغزل

نجومُ سماءٍ كلما غاب كوكبٌ
بدا كوكبٌ تأوي اليهِ كواكبُهْ

واذ قد انتهينا من هذه اللمحة التي ارسلناها ، او اللحظة التي ألقيناها على هذه البقعة من الارض ، فسِر بنا نحو بقعة أخرى قريبة منها ، سماها بعضهم جنان أروپا ، وهي المدعوة إيطاليا ، وسرّح معي طرفك بين تلك المعاهد والمغاني لنستقري تلك الآثار البديعة ونرى كم دانتي هناك وكم بيتراك ، وكم ميكيلو انجلو وكم رفائيلّو ، وكم ڤينجي وكم سيلّيني ؟ وهم وتبّاعهم ورثاء العلوم اليونانيـة وباعثوهـا ، والداعون الى مطويّ حضارتهم وناشروها ، بل هم مؤسسو أوّل ركن عظيم لهـذه الحضارة العصرية ، والنهضة التي لم يأت مثلها على هذه الكرة الارضية .

ثم تعالَ معي الآن نحو بلاد الشام ، بل ديار الشعراء والعلماء الاعلام ، وهي أعدل الاقاليم التي دوّخها العرب ، واستمرت فيها لغتهم على تراخي الحِقَب ، وابحث معي عن أسماءٍ طبّقت الآفاق ، وكادت تخترق السبع الطباق ، فهل

المكابر ، وتعلو بينة المناظر ، ويصدق قولنا السرّ بالمكان ليس السرّ بالسكّان ، فمن تلك البقعة الصغيرة نبت أثقب العقول البشرية والأفهام النيّرة ، فكم هوميروس وكم رسطاليس ، وكم افلاطون وكم ديموستين وكم فيدياس وكم أبقراط ؟ وفي تلك الآجام والغاب ، كم خطبة فصيحة القيت ، وكم مقالة بليغة تليت في الفلسفة والمنطق والطب والهيئة والرياضيات والادب والطبيعيات والتأريخ وغير ذلك ؟ وكم غردت هناك بلابل الشعر على اغصان الفصاحة والبيان ؟ ورسمت علوم الهندسة ونحت التماثيل والنقش والتصوير والصياغة وغيرها من الصناعات الجميلة ؛ ما اضبح نموذجاً ومثالاً ، بل مصباحاً يهتدي بنوره سائر أُمم الارض منذ خمسة وعشرين من القرون ، فشعرآؤها وخطبآؤها وفلاسفتها وأطبآؤها ومهندسوها ونقاشوها وعلمآؤها ، هم أساتذة كل الاجيال في سائر الامصار ، وهم العدد الوافر وكأنهم المراد بقول الشاعر

الرومان ، وكم زهير عند العرب وكم أبي العلاء ، واذا أجلت نظرك في سائر البلاد ، فلا تجد نظيراً لاهل هذه الاقاليم في العبقرية ، وكثرة القرائح السامية ، فهذه الهند والصين ومصر ، ذوات الحضارة القديمة والعمران الواسع ، بل هذه فرنسا والمانيا وانكلترة والنمسا وبلاد الروس واميركا نفسها ، المعدودة لعهدنا من أسبق الامم في الفنون ، فكم بوالو وكم هوجو عند الفرنسويين ؟ وكم كوت وكم شيلر عند الالمان ؟ وكم شاكسبير وكم بيرون عند الانكليز ؟ وكم اونو وكم جرؤن عند النمساويين ؟ وكم پوشكين وكم تولوستوي عند الروسيين ، وكم فرانكلان وكم اديسن عند الاميركيين ؟ انَّ أمثال هؤلاء في كل زمن وفي كل أمَّة قليلون . ولكن هلمَّ نفتش بقعةً صغيرةً من حدود أوروپا وآسيا الصغرى واقعة عند الجنوب الشرقي من أوروپا ، ونبحث عن أمَّة صغيرة يقال لها الامَّة اليونانية ، لنرى كم كان عندها من امثال هؤلاء العلماء والحكماء ؟ فهناك يرتدّ الطرف حاسراً ، ويقف الفكر حائراً ، وتسقط دعوى

مهزولين ، صفر الوجوه ، حليفي العلل والاسقام ، كسالى قليلي العزم ، فاقدي النشاط ، ليس فيهم ميل الى المعارف والصنائع ، مغلوبين على امرهم ، وبالعكس منهم اهل الجبال ، فانهم اقوياء ذوو شراسة وخشونة وهمة ، الا انهم في الاكثر بعيدون عن حب العلوم والصنائع كالاولين .

أما سكان الاقاليم المعتدلة والريف ، فهم ألطف اخلاقاً ، وأظرف تكويناً ، وأوفر حصافةً ، واكثر ميلاً الى الصنائع ، وأشد انصباباً على العلوم ، وعلى الجملة فهم اهل الاختراع والاكتشاف ، والحضارة الواسعة ، والذوق الحسن ، والمعارف المفيدة ، ذللوا البحار ، وقيّدوا البخار ، وحلّقوا في الجوّ وقد ركبوا الهوآء ، وقاسوا أبعاد كواكب السمآء ، وقاموا أخيراً فضبطوا بل استخدموا الكهربآء ، فجآءت بما ينسي افعال السَّحَرة ، ولهم في كل يوم فتوحات في العلوم جديدة ، واختراعات عديدة مفيدة ، وهم ذوو القرائح التي يتفاخر بها سكان الارض ، بل يكاد يطأطئ لابداعها سكان النجوم ، فكم هوميروس عند اليونان ، وكم ڤيرجيليوس عند

وأحد فلاسفة الفرنسويين : الجسم الانساني كالنبات وافعاله كالزهرة من النبات :

وأنت اذا تدبرت هذا القول وجدته من الاصابة بالمكان الاعلى ، ومن حسن التشبيه بالمحل الارفع ، فما كان من النبات في الارض العَمِقة والمستنقعات ، كان رخواً ، رديء الثمر ، قليل النفع او عديمه ، وما كان منه في الارض العذاة او الاريضة ، فهو الليّن القويّ الوافر الثمر ، الجزيل النفع للانسان والحيوان ، وما كان منه في الهضاب والجبال ، فهو الشديد الذي اذا لويته انقصف ، وهذه الاشجار تكون كبار بواسق ، لكنها قليلة الثمر أو عديمته ، بل الطيبة الثمر منها يكون ثمرها عسر الهضم كالزيتون والفستق ، ولعل هذه ليست من اشجار الجبال والهضاب بل دون ذلك كما هو معلوم . فاذا قست النبات الانساني ، على النبات الارضي ، وجدت وجوه الشبه بينهما كثيرة ، اذ اكثر ما يعرض لهذا من فعل المكان ، يعرض لذاك ، فان البشر العائشين في جوار الارض العَمِقة ، اكثر ما تراهم ، نحاف الابدان ،

عيشها في تلك الاقاليم ، هيَ هيَ في هذه ، ومع ذلك ، فهي في هذه الاقاليم غير مؤذية أو سليمة الخطر .

وبالاجمال فعالم الحيوان كعالم النبات ، ينفعل بطبيعة المكان ، ويؤثر في لونه وطباعه وأخلاقه أشد التأثير ، كما أثبت ذلك علماء طبائع الكائنات ، وهذا العلم معروف عند الافرنج باسم : انتروپولوجي : وهو علم يبحث عن أحوال الانسان ومنشأ وجودهِ واجتماعهِ وتربيتهِ وترقيه وأخلاقه ، وأسباب ذلك جميعه .

واذ قد بسطت لك فعل المكان في السكان ، من نبات وحيوان ، لم تبقَ حاجة الى شرح تأثيرهِ في الانسان ، لانه نوعٌ من أنواع الحيوان كما هو مقرر ، فهو بالطبع خاضع لهذا الفعل قال ابن سينا

في الزنجِ حرٌّ غيّر الاجسادا حتى كسى جلودها السودا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

وقال تاين [١] وهو من اكابر كتاب القرن الاخير

---

١ Taine

مثله ، وتجد مثله أوأقل منه ، في الاقاليم البعيدة عن الاعتدال ، من أمريكا وآسيا ، كصحاري الهند ، وبلاد البنغال .

على انك اذا تفقدت الاقاليم المعتـدلة الهوآء كآسيا الصغرى ، فلا تجد شيئاً من هـذه الوحوش والحشرات والحيوانات النافرة ، بل بالعكس من ذلك فان ثيرانها وجواميسها من أطوع الحيوان وأشده انقياداً للانسان ، ومثله المعزى ، حتى ان بعض الدببة التي توجد فيها ، تحاكي الغنم ، بطاعتها للانسان وبعدها عن الوحشية ، اما حيّاتها وغيرها من الحشرات والهوام فليست بسامّة ، وان قلت ان طباع هذه الحيوانات قد تغيرت ، لاعتيادها الألفة مع البشر ، قلتُ وعلى مَ ثيران قسطيلة (من الاندلس) لم يزل منها الخُلق الشرس وحب الفتك ؟ ولِمَ لم يتمكن الفرنسويون من تربية الجاموس في بلادهم الاّ في بعض الكور من جنوب البلاد ؟ وعلى مَ لم يزل الخلق الشرس من جواميس الهند المدعوة بالاهلية ، ولم تعتد الالفة والطاعة للانسان ؟ ثم أيّ علاقة للحشرات والهوام مع الألفة والعادة ؟ فوجوه

وهـذا التأثير في النبات ، وان كان يحصل من طبيعة الارض كما يقول النباتيون ، الا ان طبيعـة الارض نفسها ، قد انفعلت من تأثير الهوآء والمآء ، واذا زرعنا في السنـة التالية كل نوع من هذه الانواع في الارض التي خرج منها ، وداومنا ذلك عدة سنين ، زاد التغير في أنواع هذه الحنطة ، لوناً وحجماً وطعماً وقوّةً ، واتخذ كل واحد من هذه الانواع خاصةً يُعرف بها ، ويتميزُ عن سواه ، فلا تستطيع ان تحصد حنطة صلبة ، من أرض طرية غمِقة ، ولا ذرةً رخوة من أرض صلبة .

واذا نظرنا الى الحيوان رأينا أشدَّهُ شراسة ، وأقواهُ ضرراً وأذىً ، وأعظمهُ نفوراً وبعداً عن الائتلاف ، وأكثرهُ فتكاً بالانسان وغيرهِ ، حيوان الاقاليم البعيدة عن الاعتدال ، كبعض أقاليم أفريقيا ، فهناك تجد الكركدنّ ، والفيل النفور ، والاسد الضاري ، والجاموس الشديد الشراسة ، والمعزى النافرة ، والتمساح المفترس ، والثعبان ، والحيّة السامّة أشد السُمّ ، والذباب السامّ ، وغير ذلك كثيراً

افرطوا في نظر العواقب . وتتبع ذلك في الاقاليم تجد في الاخلاق أثراً من كيفيات الهوآء

وقد ألمّ بذلك بعض من علمآء الفرنجة وفلاسفتهم كمونتيسكيو ولامارك ، وداروين وتاين ، والذي عليه اليوم اجماع أهل النظر ، ان للهوآء تأثيراً في اخلاق البشر غير مستنكر ، تبعاً لاحكام العناصر على كل ماهو طبيعيٌّ على هذه الأرض

فاذا نظرنا الى تأثير الهوآء في النبات أو بعبارة أخرى تناسب بحثنا هذا تأثير النبات في المكان نجدهُ عظيماً ، مثال ذلك اننا لو أخذنا حفنةً من الحنطة من نوع معلومٍ أي نبات أرض بعينها ، وزرعنا قسماً منهُ في أرض شديدة يابسة ، وقسماً الحرّ ، في أرض لينة كثيرة المياه ، وقسماً في أرض رميلة شديدة لحصدنا من جميع هـذه الارضين حنطةً ، الا انها متنوعة ، وهذا التنوع نتيجة التأثير الذي أثرهُ فيها المكان ، فان الارض الشديدة اليابسة لا تنبت الا حنطة صلبة ، وبعكس ذلك الارض الغَمِقة فانها لا تنبت الا حبّاً طريّاً وقس على ذلك غيره .

موضع هذا السرّ من الاعتبار ، فجعلوه غرض بحثهم الاول في انتقادهم .

قال الفيلسوف ابن خلدون من فصول عقدها في أثر الهوآء في أخلاق البشر والكثير من أحوالهم ما محصله : انه لما كانت الاقاليم الثلاثة وهي الثالث والرابع والخامس اقرب الى الاعتدال فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكوّن في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً . قال وكذلك يلحق بهم أى بالسودان قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هوآءها متضاعف الحرارة بما ينعكس من اضوآء بسيط البحر واشعته ، كانت حصتهم من توابع الفرح والخفة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة ، واعتبر أيضاً بأهل مصر كيف غلب عليهم الفرح والخفة . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف

وعلى الجملة فان قاعدة نقد الزمان التي ذكرتها لك بأقسامها الاربعة، تزيل كثيراً من العقبات التي تعترض الناقد في طريقه، وتدفع كثيراً من الاوهام، وتحل طائفة من رموز المؤرخين وعقد الكتاب، التي يحسبها كثيرون من الاكاذيب أو الخرافات فتفهم ذلك .

الفصل التاسع عشر
في
القاعدة الخامسة نقد المكان

السرّ بالمكان ليس السرّ بالسكان

هذا السرّ انكره بعض الباحثين من علماء الفرنجة، ولم يذكرهُ من علمائنا فيما نعلم غير ابن خلدون، وانت اذا تدبرت ما يأتي علمتَ ما لسرّ المكان من التأثير في نفس المؤلف والمخترع، بل والاشياء المخترعة؛ وقد عرف نقادو الفرنجة

يبقيان بعدهما للخليفـة ؟ ولعمري ان ما قالهُ عن نفسه ، لم ينطق به أحدٌ من الخلفاء ، فلو لم يكن المقصود منهُ صورة المبالغة والتفنن في ابتكار منتهاها ، لقضى سلطانه بقتله أو بوضعه في دار المجانين .

واذا انعمت النظر في رسوخ ملـكة التقليد في البشر على العموم ، وفي أهـل المشرق الخصوص ، ووقفت على استحكام العادات فيهـم وتأصلها ، لم تعجب من بقاء كثير من الازياء المضرّة ، والعادات المؤذية ، منتشرة بينهـم خلفاً عن سلف .

واذا امعنت في البحث عما كانت عليه طرق المواصلات ، ومسافة بريد الرسائل من البعد الشاسع ، وقلة السبل لمبادلة الرسائل بين الأَخ وأخيه ، والصديق وصديقه ، لم تعجب من تطويلهم في رسائلهم ، وقد كان يمرّ العام والعامان ، ولا يحظى الرجل منهم بكتاب أو جواب ، هـذا عدا ما كان يسطو على كثير من تلك الرسائل ، من عوادي الضياع في البرّ والبحر .

وبنية قوية ، وجلد على الاعمال ، وشجاعة غريبة كلاونااردو دي ڤينجي ، تجتمع فيهِ الاخلاق السامية أخلاق العلماء ، مع الاخلاق السافلة أخلاق القتلة الاغبياء .

واذا نظرت الى ما كانت عليه الحكومة الرومانية لعهد سيلا من الفوضى — والاستبداد كل الاستبداد في الفوضى — وما كانت عليه أخلاق سكان رومة خاصة من الفساد ، وما في دمهم من البربرية ، ووفرة عبيدهم وأرقائهم وسائر أحوالهم في مجتمعهم ، لم تعجب من تمكن سيلا بمساعدة أشياعه ، من فعله أشنع الفعلات التي يرويها التأريخ البشري .

واذا وقفت على آداب العرب لعهد ابن سناء الملك ، وعلمت ان الفخر كان عندهم باباً من أبواب الشعر ، يتباهون باختراع المبالغات فيهِ على سبيل الالغاز والاحاجي ، لم تعجب من قول ابن سناء الملك ، والا فما صاحبنا بمجنون ليعتقد من نفسه تلك الخلائق ، وقد كان وزيراً ، فلو أخذ كلامه على ظاهره ، فما عسى ان يقول سلطانه ، ثم ماذا

شديدة تحسن المصارعة وحمل التراس الثقيلة ، ورمي النبال ، والصبر والجلد في تلك الحروب الطويلة بل المتوالية ، وعلمت انهم كانوا يعيشون في مدنهم عيش القبائل المتنقلة ، وكلهم يتجندون ان قامت سوق الحرب للمدافعة عن أوطانهم وحريتهم ، فلا دولة لهم ، ولا خزينة مال عندهم لهذا الغرض أو لغيرهِ ، مما تدعو الحاجة اليهِ ، فكل واحد ينفق من كسبه ، ويعيش وقت الحرب ، مما تصل اليهِ يده ، وتفقدت غير ذلك من شؤون تلك القرون الخالية ، زال تعجبك من أخلاقهم وعاداتهم .

واذا تبصّرت فيما كانت عليه أمة الطليان ، بل أمم الفرنجة كلهم لعهد الانبعاث العلمي من الخشونة والجفاء ، وما كان يجري في عروق الطليان على الخصوص — وهم أبناء الرومان — من حب سفك الدماء والميل الى الملاذ الحيوانية ، والحكومة المطلقة بل الفوضى ، وبقية الذوق الذي ورثوه من اليونان ، أو انهم اكتسبوه من محبة العلوم والصناعات الجميلة ، لم تعجب من رجل عالم متفنن ، ذي قريحة متوقدة ،

ونشّط الى الزراعة ، ومهّد أسباب الصناعة وسائر موفرات العمران ، واتسعت لعهده مذاهب الحضارة في الاقطار الاندلسية ، فانهُ كان مع هذا جميعهِ ، قريب عهدٍ بالبداوة ، عريقاً بأخلاق أسلافهِ عرب البادية ، سريعاً مثلهم الى الشر ، ميالاً نظيرهم الى الهجاء ، مستحكمة من نفسه ملكة المساواة والحرية ، لم ترسخ فيه طبيعة الترف والكبرياء وعزة الملك وأبهة الدولة ، والناس كما قيل على دين ملوكهم ، فلا عجب ان يحذو وزيراهُ حذو جدّ الخليفة المذكور الامير عبدالله ، وقد كتب الى وزيره النضر بن سلمة قبلهما ببضع سنين هذين البيتين

أنتَ يا نضرُ أُبدهْ   لستَ تُرجى لفائدهْ
انما انتَ عدّةٌ   لكنيفٍ ومائدهْ

واذا تفقدت أحوال أولئك اليونان القدماء ، وما كانوا عليه من سذاجة الفطرة ، وبساطة العيش ، وسلامة الضمائر ، ووقوفهم على الدوام عرضةً لهجمات الاعدآء من مجاوريهم المتوحشين ، وحاجتهم العظيمة ، الى أجسام قوية ، وسواعد

ثقيلةً من عمل كشمير ، وقد يستخفون كل ذلك ، اذا كانت العرقة اللبادية ، أخف من التي كانوا يلبسونها قبلها ، فيخيطون قطعة من الرصاص ، ليكمل ثقل العمامة على ما اعتادوه ، اذا حكيت هذا لمن لا عهد لهُ بمثل هذا الزيّ ، ألا يعدّهُ فناً منِ المزاح أو ضرباً من الجنون ؟

واذا وقفت على رسالةٍ لاحد الرؤساء المتقدمين كالصابئ وابن خلدون وابن الخطيب وأمثالهم ، عجبت من اسرافهم في اطالتها مع ما كانوا عليهِ من صدق البصر في ضروب البلاغة والانشاء ، وحسن الذوق وسلامته في فني التعبير والتفهيم .

على انك متى رجعت في ذلك كله الى قاعدة نقد الزمان ، ونظرت في أقسامها الاربعة المتقدمات ، اتضح لديك ان الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وان كان قد بسط ملكه ، وفتح الفتوحات العظام ، وجبى الاموال الطائلة ، ورفع أعلام العدل بين الناس ، وبنى القصور الرفيعة وفرشها بالاثاث الثمين الفاخر ، وأحب العلم ، واحترم العلماء ، وكرّم الشعراء ،

وانَّكَ عبــدي يازمانُ وانني
على الرغمِ مني أن أرى لكَ سيّدا
وما أنا راضٍ انني واطئُ الثرى
ولي همةٌ لاترتضي الافقَ مقعدا
ولو علمتْ زهرُ النجومِ مكانتي
لخرّتْ جميعاً نحوَ وجهيَ سجَّدا
أرى الخلقَ دوني اذ أرانيَ فوقهم
ذكاءً وعلماً واعتــلاءً وسؤددا
ولومدَّنحوي حادثُ الدهرِ كفَّهُ
لحدَّثتُ نفسي ان أمدّ لهُ يدا

لقالوا ان الرجل به جنة أو هو أحمق متغطرس.

واذا حكيت لغير الناقد، ان بعض الناس في بلادنا، لا يكتفون بوضع العرقة (أوهي العرقيــة) من منسوج الغزل أو الكتان على رؤوسهم، حتى يضيفوا اليها عرقةً من اللباد، ثم سندارةً ثم يلبسون فوقهــا ذلك الطربوش ثم يلفون فوقهُ عصابةً عــدة أذرع من الشاش، أو مهرّاة

شجاعاً ، قوياً ، جلداً على الاعمال ، وقد قتل غير واحد من الناس ، وسُجِن اكثر من مرة ، وهرب من السجن متسلقاً من علو شاهق ، وأعيد الى السجن ، الى غير ذلك من الاحوال والصفات التي تكاد تعد من المعجزات ، فضلاً عن تباينها واجتماعها في شخص واحد ، فقد يأخذك العجب العجاب من ذلك كله ؛ بل قد تعده من الاكاذيب .

واذا قيل لك ان رجلاً رومانياً واحداً قد سفك دم مئات ألوف من أمته ، وهي أشجع الامم ، ظلماً وعتواً ، وفعل الفعلات التي تخاف منها الوحوش الضارية، ولم يجسر أحد منهم على قتله ، فانك تحكم على البديهة بنذالة تلك الامة .

واذا قرأت على شعراء الفرنجة لهذا العهد قول القاضي السعيد ابن سناء الملك .

وفرطُ احتقاري للانامِ لانني
أرى كلَّ عارٍ من حلى سؤددي سُدى
ويأبى إبائي ان يراني َ قاعداً
واني أرى كلَّ البريةِ مقعدا

أنفسهم، كانوا يرقصون وهم عراة في حفلات مواسمهم واعيادهم امام خاصة أمتهم والعامة من نسآء ورجال ، شيوخ وشباب واطفال ، وان الاسكندر الفاتح العظيم ، خلع ثيابه عند عمود اشيل في مدينة تراوده ، وظل يركض حوله مع رفاقه والكل عراة ، احتراماً للصنم اشيل ، لعلك لا تتماسك من الضحك لجهل هذه الامة وغرابة معتقداتها .

واذا قيل لك ان لاوناردو دي ڤينجي[1] كان مصوراً عبقرياً ، وموسيقياً بارعاً قادراً على عمل أي آلة من الآلات الموسيقى ، وكان جميل الوجه ، حسن الصوت ، رشيق القوام ، فصيح الكلام ، كاتباً عالماً رياضياً مهندساً نقاشاً ماهراً وصائغاً حاذقاً ، ونحات تماثيل ، وسكّاب معادن ، ومخترع آلات ، وصانع سفن ، ومن أعظم رماة البنادق ، واشهر ضرّابي السيوف ، وفارساً مغواراً ، وعلى الجملة فان قريحته السامية ، كانت معدن الاختراع وملكة الاقتدار على بدائع الصنائع ، وانه مع ذلك كله ، كانت له خواطر كخواطر الاولاد ، وكان

١ Leonardo di Vinci.

حجبناكَ لمَّا زرتَنا غيرَ تائقٍ
بقلبِ عدوٍّ في ثيابِ صديقِ
وما كانَ بيطارُ الشآمِ بموضعٍ
يباشرُ فيهِ برّنا بخليقِ

عجبتَ لهذه المهاترة من هذين الوزيرين .

واذا قيل لك ان أمةً حملت مصباحَ العلوم والفنون ، وكانت أولَّ قائد لهذه الحضارة العصرية ، وقد دوّخت البلاد ، ودكت امنع الحصون ، وفاقت سائر أمم البسيطة بشجاعتها ومروءتها وكرم اخلاقها وقناعتها وآدابها كالأمة اليونانية كان الرجل منهم اذا أراد ان يوثق عروة الصداقة بينه وبين رجل آخر ، يعيره زوجته ، واذا كانا كلاهما متزوجين استعار كل منهما زوجة الآخر . وان من أحسن صفات الجندي الباسل ، السرقة ، وان كان لا يعرف ان يسرق ، أو انه لا يسرق ، فلا يليق به ان يعد نفسه في عداد العساكر الشجعان ، لاريب انك تقضي عجباً من ذلك .

واذا قيل لك ان شعرآء هذه الامة وابطالها وفلاسفتها

ناصر العلوم والمعارف ومشيد أركان الحضارة والعمران نصره الله

والرابع آداب ذلك العصر وأخلاق أهله ومعتقداتهم وعاداتهم وملبوسهم وأزيائهم وسائر أحوالهم في اجتماعاتهم ، ومجالس سرورهم ، وأعراسهم ومآتمهم وغير ذلك .

فاذا مرّ بك ان ذا الوزارتين احمد بن شهيد وزير عبد الرحمن الناصر الخليفة الاندلسي ، كتب الى شريكهِ في تدبير الملك ، ومتولي الامر معهُ الوزير ابن جهور وقد زاره يوماً في منزله ، فابطأ بالاذن اليه ، في الدخول ، وكان ابن جهور يلقب بالحمار هذين البيتين :

أتيناكَ لا عن حاجة عرضَتْ لنا
اليكَ ولا قلبٍ لديكَ مشوقِ
ولكننا زرنا بفضل حلومنا
فكيف تلاقي برّنا بعقوقِ

فأجابهُ ابن جهور وكان يشيع ان جدّ ابن شهيد كان بيطاراً بالشام .

فينتقل بك الفكر الى حالة الدولة لذلك العهد ، وأحكامها ، وهي كانت ولا شك مطلقة ، يستبد بها الفرعون المتألّه ، وكيف ان تلك العصور السحيقة قد جمعت بين الاستبداد وعزّ تلك الدول وغناها ، الى ما يتفرع عن ذلك ، فان للعلوم والفنون ، علاقة شديدة بسياسة الدولة ، فكلما كان المالك أو وزرآؤه ، من أهل العلم ، نفقت في سوق دولته بضاعة العلمآء كما هو الشأن لهذا العهد في ممالك الغرب . عند أمم الفرنجة كالفرنسويين والالمان والانكليز والطليان وغيرهم ، فقل ان تجد لهم مالكاً أو وزيراً أو حاكماً ، غير مضطلع لعلوم السياسة والخطابة والجغرافية والطبيعيات والتأريخ والادب ، وهي العلوم التي لا بدّ لهم منها ، فضلاً عن ان كثيراً منهم معدود في طبقة اكابر علمآء الفلسفة أو الهيئة أو غير ذلك ، فلا بدع ان ينفق العلم في أسواقهم ، والناس على دين ملوكهم . وقد أخذت دولتنا العثمانية حرسها الله أخذهم في هذا السبيل ، عملاً بارادة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد الثاني سلطاننا المعظم

بالالوان الزاهيـة ، كالتصوير ، وصناعة الزجاج ، وصناعـة المراكب ، وصناعة الاصباغ وغير ذلك شيء كثير ، ثم بينما انت تعبر من مخدع الى معبر ، وتنزل من مصعدٍ الى خلوة ، ومن منعطف الى بئر ، يتدرج بك الفكر الى البحث عن تلك الـكنوز التي خبأتها يد الانسان منـذ أقدم العصور ، حباً بالبقآء على هذه الارض أو طمعاً بالخلود ، ثم انك لا تصعد من تلك الحصون والسجون العيمقـة ، بل القبور ، وتمتع باشتمام الهوآء النقيّ ، حتى يحلّق بك التصوّر الى أعالي تلك الاهرام ، فتنظر صغر من تحتك من البشر ، بل ترى صغرك وضعفك أمام فخامة ذلك البنآء ، بل تلك الجبال ، ويحرّك ذلك الى التفتيش عن عظمة رافعيها وما كلفتهم ، بل عما كلفت البلاد من الاموال الطائلة ، وعن المدة التي اقتضت هذا العمل الشاق الفخيم وعدد الفعلة الذين اشتغلوا بهِ [1]

(١) قد قدّر المهندسون انهُ لا يتم بناء هرم كالهرم الاكبر في مدة تنقص عن العشرين سنة اذا اشتغل بالبنآء مائة ألف فاعل كل يوم فتأمل .

من مبالغة المؤرخين في تلك العصور أو مخبريهم — وتتبع تلك الشؤون وأحوال الجند ، فتجد فراغ خزينة الدولة من المال ، وانهماك الخليفة ووزرآئه بالملاذ ، وجور العمال وعسفهم وتطاولهم على حقوق العباد ، الى غير ذلك من الشؤون المضطربة الكثيرة ، والفساد الفاشي في جميع أركان الدولة ، فتتحقق من ذلك كله ان ذاك التأريخ هو ابتدآء هرم الدولة العباسية .

وكأن تمرّ باهرام مصر فتستوقفك عظمة ذلك البنآء الجسيم ، أو تروم نقدها فلا تقف على تأريخ بنآئها المتناهي في القدم ، بل يوصلك البحث الى أسمآء خينوس أو (خوّو) وخوراح ومنكاراح الفراعنة الثلاثة الذين ابتنوها ، ثم لا تنطلق خواطرك في نقد هندستها واحكام بنآئها العجيب ، وما احتوت عليه من الهياكل والمخادع والغرف والدهات والحواجز والزوايا والمعارج والخبايا ، حتى يسوقك الفكر الى نقد العلوم والصنائع التي كانت لذلك العهد السحيق ، بالغة من الاتقان غاية بعيدة ، واكثرها مرسوم على الحيطان

والثالث البحث عن الدولة وحكامها، وأحكامها، وحالها، من الفتوّة أو الهرم، ومن القوّة أو الضعف، ومن الغنى أو الفقر، ومن عزّ النصر أو ذلّ القهر، الى غير ذلك مما يتبع هذه الاحوال ويتفرّغ عنها.

مثالُ ذلك كأن يمرّ بك قتل المتوكل على الله الخليفة العباسي سنة سبع وأربعين ومائتين، وان ذلك حسب رأي المؤرخين، كان نتيجة مؤامرة بين ابنه المنتصر ووصيف وبغا وغيرهما من قوّاد الاتراك، فتنظر ناظر ناقد منصف في استبداد المتوكل، وعيثهِ في الاحكام والشريعة، ثم في ظلمهِ وبطشهِ واستصفآئهِ الاموال، من العمال والحكام والقضاة، ثم تمعن النظر في أسباب غنى هؤلآء، وان الفرد منهم كنجاح بن سلمة وكان منصبه كمفتش على العمال لهذا العهد، قد استصفى منهُ المتوكل مئتين وعشرة آلاف دينار، وهو مبلغ يعادل ثمانية عشر مليوناً وتسعمائة ألف غرش أو ثلاثة ملايين واربعمائة الف فرنك عدا غرسه وضياعه — ولا بد لك من اسقاط شيء كثير من هذا العدد لتنقيته

نقدنا ، وعلمنا — بحسب القسم الاول من هذه القاعدة — أنها من مصنوعات القرن السابع عشر ، لسار بنا الفكر وان شئت فقل النقد ، نحو عصور الانبعاث العلمي ، وأوّلها القرن الخامس عشر ، وهو نهاية عهد القرون المظلمة ، وأرانا الهبَّة التي هبَّتها أروپا وأخصه أمة الطليان ، نحو العلوم والصناعات الجميلة في القرون الاخيرة ، بعد ذلك السبات الطويل ، وبعد خروج آخر نسمة من حياة الحضارة اليونانية ، ولأطلعنا على شيوع الصناعات الجميلة وترقيها ، وما ظهر للبارعين فيها من الآثار الجليلة ، ولتمثّل لدينا دانتي امير شعراء الطليان وهو من اهل القرن الرابع عشر ، ثم پيترارك وهو من أول القرن الخامس عشر ، ثم ميكيلّو انجيلو[1] نحّات التماثيل ، ثم رافائلّو[2] المهندس والمصور العظيم ، وپاليسترينا[3] الموسيقي وغيرهم

وكأنهم نُسقوا لنا وكأنما ا

ردّ الالهُ نفوسهم والأعصرا

---

١ Michel Ange Bouonarotti ٢ Raphael Sanzio
٣ Palestrina

المصنوعات البزنطية ، فيجدر بك بعد أن تقف على تأريخ تأليف الكتاب ، او عمل الآنيــة ، أن تلقي نظرةً على علوم الأمة البزنطيــة في ذلك العصر ، بل ان نهج التأليف ، واغراضه ، وسبكه ، وشكل الاناء ، واتقان عمله او وضوح القصور فيه ، مما يدلك على الزمن ويعين لك مكان صنع الاناء وعصره على وجه التقريب ، فلو عاينت في القسطنطينية أو فيما يجاورها من البلاد قبةً يحاكي شكلها قبة جامع اياصوفيا لحكمت أنها من عهد الامبراطور يوستينيانس ، خصوصاً اذا كان عليها من علامات القدم ، ما يحقق ظنك ، ويثبت زعمك ، مما هو معروف عند علماء الآثار والعاديات ، واذا نقبت عن علوم عصره وصناعات اهليه ، وهو القرن السادس للمسيح وجدت اكثرها شيوعاً واعتباراً واتقاناً ، الهندسة ، فالصياغة ، فالتصوير ، فالمينآء بالالوان ، فالفسيفساء ، فنسج الملابس الفاخرة الموشاة بالذهب والفضة .

ولو عاينّا صورةً مما صوره رامبران[1] وجعلناها غرض

[1] Rambrand

لا يجب ان يكون مقصوراً على معرفة او تعيين السنة ، بل يجب ان يشمل اربعة اقسام .

أولها التنقيب عن تأريخ الزمن الذي صُنع فيه المنقود . وتعيين السنة ان امكن ، وان لم يمكن الوصول الى تحقيق ذلك ، فلا أقلّ من تحديد المدة على وجه التقريب ، كقولنا وُلد جنكيز خان سنة ١١٥٥ أو ١١٦٠ وقيل سنة ١١٦٢ للمسيح ، او كقولنا ان صناعة الزجاج قديمة جداً ، وأقدم تأريخ لها يرتقي الى اكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، لانهم وجدوا في مدافن بني حسن في مصر رسوماً تمثل أناساً من اهل طيوة ينفخون الزجاج ، ويُظَنّ أنها رُسمت لعهد الملك « أوزورتوزن الاول » أي منذ ثلاثة آلاف سنة .

والثاني الوقوف على علوم وصناعات عصر الشيء المنقود ، او الالمام بأكثرها ، والتنقيب عما كان اكثر شيوعاً وأوفر دقة ، عند الامة التي صنعت ذلك المنقود ، كما لو كان النقد واقعاً على مؤلف بزنطيّ ، او آنية او غيرها من

تناول اليراعة وخط بها على القرطاس كلاماً لا يتعدى الخبط والخلط ، وهو يحسب انه اذا سوَّد وجوه الصحائف ، عُدَّ بين أهل المعارف ، وانت تعلم ان الفنون ضنينة بأسرارها ، لا يصل اليها الا نفر من عشاقها ولله در القائل :

كم أتاها قومٌ على غرةٍ منـ
ـها وراموا قِرًى فعزَّ الوصولُ
منتهى الحظ ما تزوَّد منهُ الـ
لحظُ والمدركون منهُ قليلُ

الفصل الثامن عشر

في

القاعدة الرابعة

نقد الزمان

المراد بنقد الزمان ، هو أن ينظر الناقد الى العصر الذي ظهر فيه التأليف او غيره مما يجعله غرض نقده ، وهذا النظر

صحة شرحه وتفسيره ، بالحجة التي لا تُرَدّ .

وهذا كله يصدق كما ذكرت لك قبيل هذا على صنيع المنشئين وسائر المتفنّنين العبقريين ، واما اذا عمد الناقد الى صنع سواهم من قليلي البصر في الانشآء وسائر الصناعات الجميلة ، أضاع وقته وصرف جهده سدًى ، وكان كمن يحاول ان يستوضح خيالات بعض الصور في نور الحباحِب ، والسبب في ذلك ، ان هؤلاء ليسوا ممن رسخت قدمهم في الصناعات وشغفوا بها لتمنحهم اسرارها ، بل اكثرهم متطفلون أو مقلدون ، يكتبون ويعملون بلا تروٍ ولا بصرٍ في مواقع اللفظ واماكنه من المعاني ، ولا اطلاع على فروع المسائل في أي فن من الفنون ، وقد يفوتهم حسن الذوق في صناعة التعبير والتصوير ، وهو عماد كل صناعة ، كما قد تفوتهم الآلة الاولى وهي مادة العقل واتساع المدارك ، أو تنقصهم من ذلك حصة وافرة الى امثال ما ذكرته مما لا بد منه لبلوغ العبقرية .

وقد يتوهم بعض المغرورين المتحذلقين ، ان منتهى العلوم كلها ، حفظ قواعد النحو والصرف ، فاذا ما نال شيئاً منها ،

من اصدقائه لا رسالة شكرٍ الى منعمٍ محسن ، اذ لو كانت من هذا الباب لوجب ان تكون بهذا النص : وصلتني يا سيدي وملاذي الهبة التي طوقت عنقي بالامتنان، فرددت معها اعجاز الحمد على صدور الشكران ، وقد عقدت مني اللسان، ومثل مولاي من يمنح الكثير ، ويصفح عن التقصير ، لا زال المحسن المتفضل ، والمنعم المجزل ، بمن الله وفضله :

فاذا قايست بين الرسالتين بالنظر الصادق وجدت لفظة هبة ، هي اللائقة في مقام شكر النعمة ، وكلمة هدية ، يحسن ايرادها في شكر الصديق ، وادكار الود والولآء ، وعاطر الثنآء ، واقعة محلها في كتاب كفوءٍ الى كفوءٍ ، كما ان ذكر الحمد والشكران ، والتفضل والاحسان ، والتماس الصفح عن التقصير ، الى آخر ما ورد في الرسالة الثانية ، هي الالفاظ الجديرة بالتحدث بالنعمة .

ومما تقدم شرحهُ تعلم انك لو أردت ان تعكس شرح هذه الرسائل ، أو شرحتها خلاف ما شرحته لك ، عن جهلٍ منك بفن النقد ، لاظهر الناقد عيب شرحك ، واتى على

المكتوب اليه ، وان لم تجزم بذلك ، فلا شك انك تجزم بان المكتوب اليه شاب يبشَّر بالسعود والاقبال ، وتُتلى لتهنئته فواتح الآمال ، وهذا يستفيده ذهن الناقد البصير من المقايسة عند قرآءته لفظ حرسك الله ، ثم موافاة النعم وقدوم السعود ، فلا يُكتَب الى الشيخ حرسك الله ، بل أعزك الله ، أو ابقاك الله أو امثال ذلك ، ثم لا يبشَّر بالسعود والاقبال وفواتح الاماني ، وهو في ختام العمر ، يودّع الدنيا وما فيها ، واذا كتب اليه في هذا المعنى فيُقال مثلاً وانت أطال الله بقاءك بلغت من النعم والسعادة ، ما ليس بعدهُ لمستزيد زيادة ، وكلها تنطق بقديم مجدك وجديده ، ووافر فضلك ومديده.

واذا وقفت على رسالة بهذا النص : وصلتني يا سيدي وحبيبي هديتك اللطيفة ، فجدّدت مالك عندي من قديم الود ، واذ كرتني ولم أكن ناسياً وفاءك وكرم العهد ، وحققت لديّ منك صدق الولاء ، واوجبت لك مني عاطر الثناء :

قلت لو انك وقفت على رسالة بهذا النص لحكمت بالاستناد الى قاعدة المقايسة هذه ، انها رسالة صديق الى كفوء

من اللفظ أو الدهان للمكتوب اليه ، أو المكتوب عنهُ ، أو للشيء ، لابدَّ له من ان يحضر الى مرآة ذهنه صورته واخلاقه أو شيئاً منها وسائر أحواله ، ثم انه يباشر تفصيل ذلك الثوب لهُ ، فلا يمكن ان يصنع لهُ ثوباً عريضاً ، اذا كان الرجل ضعيفاً ، ولا ثوباً طويلاً اذا كان قصيراً ، فان ظهر للناقد شيء من هذا القبيل ، لزيغ بصر المتفنن حال عمله ، كأن يكون مضطرب الفكر أو غير ذلك .

فاذا علمت هذا ، لم تعجب من وقوع النقَّاد البصيرين على الحقيقة ، اذ انهم يرون على صحيفة الكاتب ، تلك الصورة التي تخيلها أو شبهها .

وهاك مثالاً لذلك ، اعتبر انه طلب اليك ان توضح سن المكتوب اليه الكتاب الآتي ، من لفظ الكتاب :

وانت حرسك الله قد وافت اليك سوابق النعم ، من صميم المجد ومعدن الكرم ، تبشر بسعد قادم ، واقبال ملازم وهي تتلو فواتح الاماني البواسم .

فلا ريب انك تحكم ان الكاتب ، أكبر سناً من

العبادة . . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرّماً من اكبر الكبائر . . ثم تقرأ لهُ بعد ذلك في نسب ادريس ما كان من أمر الرشيد والتحيّل في اهلاكه بالسموم ، وادريس هذا من العلوية لم يأت محرماً ولا اثماً .

فتقايس بين القولين لتعلم منهما حال الرشيد ، فلا تهتدي وجه الصواب ؛ وانما يصح عندك وقوع ابن خلدون في المناقضة ؛ وهذه هي المقايسة اللفظية .

وكأن تشاهد برنية من الغضار النفيس من صنع معمل سيفر المشهور ، وعليه صورة جبال الالب وقد كسي جانب منها بشجيرات القطن أو باشجار البن ، فتقايس بين الصورة والحقيقة ، وأنت تعلم موضع جبال الالب ، واستحالة نبت القطن والبن في منطقةٍ باردة وارَضين صخرية ، فتتضح لديك مناقضة المصور ؛ وهذه هي المقايسة النظرية ،

وقد لا يهتدي الناقد الى حقيقة المقول فيه أو المصنوع ، لزيغ بصر الصانع حال صنعه ، والسرُّ في ذلك انه عند ما يأخذ المتفنن القلم ليكتب أو ليصور ، وبعبارة أخرى ليصنع ثوباً

غير مواضعها ذهبت برونق الكتاب او الشعر ، واتضح منها ضعف المؤلف فيما قصد لهُ ، وهذا مما ألمَّ بهِ علمآء البيان ، الاّ انه لم يكن لي بدٌّ من ذكره لعلاقتهِ بهذه القاعدة .

وقد تزل أقلام بعض الكتّاب والمتفننين فيتيه حكم الناقد على مصنوعهم ، في بيداء الوهم أوالظن ؛ وذلك لوقوع التناقض في قولهم أو عملهم ، الا انه لا يخفى عليه خطأهم ذلك ، فيرشد القارىء او الناظر اليـه ، ويكون في تلك الحالة قد جمع بين المجهول والمعلوم ، غيرَ انه قد جهل ما كان يجب الوقوف عليه ، ووقف على ما كان يجهله

مثال ذلك كأن تحب الوقوف على حقيقة حال الخليفة هرون الرشيد مما رواهُ عنه ابنْ خلدون في مقدمته فتقرأ ما يأتي قال واما ماتموِّهُ به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشَ لله ما علمناعليهِ من سوء وأين هذا من حال الرشيـد وقيامهِ بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلمآء والاوليآء . . ودعآئه بمكة في طوافه وما كان عليه من

ذلك لو سمعت موسيقياً مجيداً يوقّع صوتاً او أغنيةً على آلة من آلات الموسيقى ، فلا تستطيع تحديد جمال الاغنية او الصوت والحكم على اللحن بالاجمال ، الاّ اذا كانت الآلة صحيحةً ، محكمة الأوتار ، متقنة الصنع ، وكنت على علم بفنّ الألحان .

واست تجهل ان الكتابة الى الشيخ الهرم ، لا تكون كالكتابة الى الفتى الحَدَث او الشاب ، وليست الى المُشاكِل والمماثِل ، كالكتابة الى المسوَّد الآمر ، ولا الى المنعم المتفضل كالصديق الحميم ، ولا دخل للالفاظ المنطقية من المقدمات والنتائج والماهيات والقضايا والكليات والجزئيات في الغزل والنسيب ، ولا موقع للمدارك الجسمانية والذوات الروحانية والاحكام الذهنية مما هو من استعمال الفلاسفة ، في رسائل الاستعطاف للكبرآء ، ولا محل للفضلات والنبض والامزجة والادوية مما هو من ألفاظ الاطبآء في رسائل العتاب والمدح ، الى غير ذلك مما يطول شرحه من مصطلحات سائر اهل العلوم والفنون ، فان هذه الالفاظ اذا وضعت في

والمراد **بغير العاقل** أن يكون وصفاً لحيوان . **وأما المراد بالشيء** كأن يكون كلام الكاتب وصفاً لشيء ، من مدينة ، أو قصر ، او واقعة حربية ، او إناء ، او آلة زينة ، او طعام او ملبوس او غيره .

وهذه القاعدة تنحصر في **المقايسة** والمقايسة تنقسم الى نوعين **لفظى** ، **ونظرى** . فالمقايسة **اللفظية** تقع على الشعر والانشاء ، والخطابة والغناء ، وما الى ذلك . والمقايسة **النظرية** تقع على المنظورات كلها .

واعلم ان اللفظ للمعنى ، كالثوب للجسم ، فالثوب الطويل للقوام الطويل ، والثوب العريض للجسم السمين ، والمتفنن العبقريّ يعطي كلاً ما يخصهُ من الصورة او الالفاظ اللائقة به ، فاذا نظرتَ الى صورة يدٍ وكنت ذا بصر بفنّ التصوير ، حكمت من النظر الى تفصيل تركيبها واجزائها وجملة تقاطيعها ، انها يد رجل شاب او شيخ ، او امرأة فتية او هرمة ، او غير ذلك ، وهذا الحكم لا يتيسر لك ولا ينطبق على واقع الحال ، الاّ اذا كان المصوّر بارعاً ، ومثل

الفصل السابع عشر
في
القاعدة الثالثة

نقد المقول فيه

قلت المقول فيه لانه يشمل كل شيء يُنتَقد ، فقد يكون خطاباً ، وقد يكون رواية عن الغير ، وقد يكون عاقلاً او غير عاقل ، وقد يكون شيئاً .

والمراد **بالعاقل** أن يكون الكلام عن انسان ، فيتعين حينئذ على الناقد ، ان ينظر أولاً ان كان المقول فيه رجلا أو امرأةً ، ثم أن يبحث عن سنهِ وصناعتهِ ومقامهِ في بيئته ، وكل ذلك من نفس الرسالة المكتوبة عنه او الكتاب المكتوب اليه ، وان تمكن الناقد من الوصول الى كتاب آخر ، أو راوٍ ثانٍ يروي عن المنقود ، كان ذلك عوناً عظيماً على سهولة النقد واصابة الحكم .

في الموعظة والارشاد وبسط ما يعرض للخلق في مجتمعهم الانساني ، من الملوك الى السوقة وتحديد ما يجب على كل منهم ويفرض ، وما يليق بهم عمله ، ولكنه قد فاته من ذلك الشيء الكثير — وليس هذا محل نقد الكتاب — فاذا بعين الناقد العبقري ، وجدت غرضهُ تحدي بيدبا الفيلسوف الهندي صاحب كتاب كليله ودمنه ، وهو الكتاب الذي عرَّبه ابن المقفع نفسه فانطبعت في ذهنهِ موضوعاته ، واستحسن ما به من الارشاد والتحذير والنصائح والحكمة غاية الاستحسان ، فجال في فكره خاطرٌ هو أن يكون بيدبا العرب ، فاقتطف من كليله ودمنه عيون حكاياته التي يرويها ذلك الفيلسوف على لسان الحيوان ، واختصرها ولخصها على هذه الصورة ، واذا ما قابلت بين كليله ودمنه وبين الدرة اليتيمة ببصيرة ناقدة ، تبين لك غرضه الذي أشرت اليه ، ومكان هذا النقد الصواب والله يعلمُ ما تُسرُّون وما تُعلنون.

الغلو ، — كما بينته لك — واكثر من الدعآء له بالرحمة والغفران ، واما ابن المقفع فألف كتابه وهو يرى به الارشاد الى المخالقة ، والتحذير من شرور الخلق وفسادهم ، تهذيباً للصغير ، وتنبيهاً للغافل الكبير ، ولم يدر في خَلَدهما انا سنأتي فنحلل عباراتهما وجملهما والفاظهما وصورة التراكيب التي رسماها ، كما يحلل الكيماويُّ العناصرَ بعضها من بعض ، ونستخلص من ذلك ما تظهر به عواطفهما واميالهما حق الظهور . حتى لو عُرض عليهما تحليلنا أو بالحري نقدنا ، لما نبسا حرفاً .

القسم الثالث **الغرض** اعلم ان الغرض في القاعدة الثانية ، كالغاية في القاعدة الاولى ، الا ان الغاية اعم ، والغرض اخص ، فالغاية هي ما تقدمها باعث او دافع ؛ يدفعك الى العمل بحكم الضرورة ، وهذه الضرورة قد تكون صحيحةً واقعيةً ، وقد تكون عن وهم في الخاطر ، **والغرض** شوق يحدث لك لعمل الشيء ، **فغرض** ابن شداد في تأليفه النوادر السلطانية لا يتعدى عواطفه التي ذكرتها لك ، وهي البرّ بمخدومه الجليل . وأما غرض ابن المقفع فهو التشبُّه بالفلاسفة

العلانية . . . ان أردت ان تكون داهياً ، فلا تحبن ان تسمَّى داهياً . . . ان عدوك من تعمل في هلاكه ، ومنهم من تعمل في البعد عنه فاعرفهم على منازلهم . . . اذا كنت لا تضبط أمرك ولا تصول على عدوك الا بقوم لست منهم على ثقة من رأي ، ولا حفاظ من نية فلا تنفعك نافعة حتى . . . وألبس لهؤلاء القوم الذين هم أعداؤك سلاح الصحة والاستقامة .. انهم ان سخطوا عليك اهلكوك ، وان رضوا عنك تكلفت من رضاهم مالا تطيق . . فان الانسان طبع على ضرائب لؤم فمن شأنه ان يرحل عمن لصق به ، ويلصق بمن رحل عنه . . فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعيي . . .

وهكذا سائر كلامه في هذا الكتاب . ومما تقدم تجد ان هذين الكاتبين ، قد أُخذا من حيث لا يشعران . فان ابن شدَّاد وكان وفياً تقياً سليم القلب صافي النية ، رأى من البرّ ان يخلّد في بطون الكتب ذكراً حميداً لمولاه الجليل ، فكتب وقائع حروبه وشيئاً مما ظن انه يعلمه من أخلاق واحوال ذلك السلطان العظيم ، ولعله قد ركب في هذا متن

لم يكن يقطع صلاةً او صدقةً ، وكان كثير الخشوع .

فهذا كله دلني على ما ذكرته لك من ضعف رأيه . وبعده عن فنون التدبير والسياسة ، وجهله الصفات التي التي تغلب في كبار رجال الحرب ، والتي كانت ولا ريب تامةً في ذلك الفاتح العظيم ، وتيقنت ان ما حسبه محاسن في ممدوحه ليست الا امياله وعواطفه

وهاك مثالاً آخر . قرأت الدرة اليتيمة لعبد الله ابن المقفع ، وانتقدت عواطفه وامياله ، فتحققتُ ان الرجل كان شديد الحذر من الناس ، سيء الظن بهم ، يتوهم ان كلهم اعدآؤهُ ، وكان حقوداً جداً مع وفور علمه ، ذا مكر وغدر ، قاسي القلب .

وان شئت برهان قولي فاسمع ما يقول : انهُ ليس أحد الا فيه من كل طبيعة سوء غريزة . . . وهي في ذلك كله كامنة كمون النار في العود . . اعلم ان اعظم خطرك ، ان ترى عدوك انك لاتتخذه عدواً ، فان ذلك غرة له وسبيل لك الى القدرة عليه . . . واياك ان تكافئ عداوة السرّ ، بعداوة

وينادي يا للاسلام وعيناه تذرفان الدموع) وقال عند قدوم الملك المنصور عليه (وضمهُ الى صدره ثم غشيه البكاء فصبَّر نفسه حتى غلبهُ الامر وغشيهُ من البكاء ما لم يُرَ مثله فبكى الناس لبكائه) وغير ذلك في تاريخهِ كثير .

فقد رأيت كيف جعله يبكي سريعاً للحزن على ابن اخ لهُ ، ثم هو لا يظهر عليه شيء من التأثر لفقد ابنه اسمعيل ، ثم انه يبكي قبيل الهجوم على العدو ، ثم يبكي عند اشتداد الخطب والحاجة الى رحب الذرع وشدة العزم ، ثم يبكي في وقت حمى الوطيس — وبذلك يريد ان يشجع العسكر — ثم يبكي لملاقاة غائب ولا يستطيع ان يصبّر نفسهُ حتى يغلبه البكاء ويغشى . .

ثم وجدته كلما استشارهُ السلطان في امر مُعضل او ملتمس وعر ، او وجد هو محلاً للرأي والتدبير والاسعاف بالمشورة ، لم يكن يقول للسلطان الا اخشع ، وصلِّ ، وتصدق ، وهذه كلها لا محل لها في تلك المواقف المحفوفة بالمخاطر ، خصوصاً والسلطان — كما ذكر هو نفسهُ عنه —

حساده بذلك ، فأراد صاحبنا ان يستر هذا الخرق ، فألبسه حلةً لا تليق بهِ بوجهٍ من الوجوه ، فكلما رأى السلطان في أمر ملتبَس ، او ادجنت سماؤه وكان احوج ما يكون الى ثبات جنانٍ ، واصابة رأيٍ ، ورحابة صدر يندك لها طود الشدائد ، مثَّلهُ لنا كجندح البكيّ ، وجعله كأضعف النساء وأجبنهنَّ ، لا يستعين على امرٍ من أمورهِ بغير البكاء ؛ فبينا هو ذاهبٌ لحرب العدوّ وقد اشرف عليه ، يقول صاحبنا ما محصَّلهُ : عاد وأمرني بالاشارة الى اخيه بأن يحضر معه علم الدين وفلاناً وفلاناً وأخرج كتاباً من قباه وفضّه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبهُ البكاء والنحيب : وبينا وقع الاختلاف بينه وبين جماعة أمرائهِ في الهجوم على العدوّ وهو خائف على الملك من الضياع وعلى البلاد ان تذهب من يد الاسلام ، نرى صاحبنا يقول (فلما جاء وقت الجمعة صليتُ الى جانبهِ في الاقصى فصلى ركعتين ورأيتهُ ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعهُ تتقاطر على مصلاه) وقال في موضع آخر (والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه

هاتان الصفتان في مولاه نخلعهما عليه مع استحالة وجودهما به ، اللهمَّ الاّ الى شيء قليل من ذلك ، فكيف يكون كثير الشفقة وكل يوم يقتّل من جنوده وجنود اعدائه — وهم ايضاً من مخلوقات الله — ألوفاً او مئات ؟ وكيف يكون وافر الشفقة وهو يقدّم بين يدي مسيره اسيراً فيأمر بقتله ؟ — على بركات الله — ! (وكان على القاضي ان يقول انهُ فعل ذلك تشجيعاً للجند التي كان امرها بالزحف على العدوّ كما هو الواقع ، ولكن لم يفقه القاضي المراد من ذلك ، لجهله سياسة الحرب ، فلم يذكر شيئاً من هذا .) وكيف يكون كثير الشفقة غزير الدمعة ، وهو وفآء لنذره يضرب عنق البرنس ارناط بيده ؟ ويأتيه خبر وفاة ابنه البالغ اسمعيل فلا يظهر عليه شيء من التأثر ؟

ثم كأنهُ لسلامة نيته وحسن طويته ، توهم ان غزارة الدمع والشفقة وكثرة البكآء ، من الصفات التي يجدر أن يتحلى بها الملوك والسلاطين ، او كأن صلاح الدين رحمه الله كان قاسي القلب ، لا يعرف للشفقة معنًى ، وكان يعيبهُ

أخرجهُ ، كل ذلك ضرباً من التبذير والاسراف وقلة الحزم وضعف الرأي ، وهذه الصفات يستحيل اجتماعها في صلاح الدين ، وهو ابن والي تكريت ربي في حجره وترعرع وشبَّ على دهاء السياسة والتدبير « حتى اذا بدت مخائل نجابته للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، عوّل عليه ، ونظر اليهِ ، وقربهُ وخَصصّهُ » كما روى القاضي نفسهُ الى آخر ما ذكر عنهُ من عزم نور الدين على انفاذه لفتح مصر مع أخيه أسد الدين شيركوه وهذا جعله مقدّم عسكره ، وصاحب رأيهِ .

اذن اتضح لي من نقد هذا القول كلهُ ، ان عواطف الكاتب وأميالهِ ، جرّته الى الوقوع في مناقضة القول ، وانهُ لسذاجته أراد ان يحلي مولاه بالكرم ، فتجاوز حدّ الحقيقة ، بل ركب غاية الشطط ، اذ حسن التدبير ليس بمانع صفة الكرم عن السلطان .

أما وصفهُ السلطان بكثرة الشفقة وغزارة الدمع ، فهذا ايضاً قد نمَّ على عواطفه ، فعلمتُ انه كان يودّ أن تكون

حاشيته وذويه وغيرهم ، فضلاً عن الاحسان الى الجواسيس لتأتيه بأخبار العدوّ ، وهذا كلهُ عدا ما يلزمهُ من أعطيات ذوي الرتب والوظائف والنفقات التي يقتضيها بيت السلطان نفسه وذوي رحمه وحاشيته وعيالهم في الحلّ والترحال ، وعلى الجملة فانهُ مهما كان حال دولة صلاح الدين من الفتوّة والبداوة والقناعة ، كان لا بدّ لهُ من ان يذخر في خزانة الدولة مالاً يكفيه شهراً على اقلّ تقدير ، فانك اذا نظرت الى ما كانت تفعلهُ الملوك من قبله من تجهيز الجيش بالاموال قبل كل شيء ، كما فعل المعز لدين الله عند ما بعث القائد جوهراً لفتح مصر ، وكما فعل سائر الفاتحين ، لعلمهم انهُ لا يتم لهم أمرٌ بغير المال ، اذا علمت هذا كلهُ ، وتحقق لديك ان صلاح الدين كان من عظماء الفاتحين ، وأقطاب السياسة ، وكان واقفاً على جلائل شؤون الدول التي تقدمتهُ ودقائقها ، رأيت ما حكاهُ القاضي عن اضطرار السلطان الى بيع أشياء من بيت المال ليوزع ثمنها على بعض الوفود ، واخفاء نوابه عنهُ شيئاً من المال ، لعلمهم انهُ متى علم به

ذلك سوى انهُ لما قرأ الكتاب دمعت عينه . »

وقال في موضع آخر « ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الافرنج وبيننا وبينهم شوط فرس فاحضر الملك العادل وغيره ثم أظهر الكتاب وبكى بكاء شديداً حتى ابكانا من غير ان نعلم السبب . »

وقال في موضع آخر « ثم ضرب عنق البرنس ارناط بيدهِ وفاءً بنذرهِ . » وقال قبل ذلك « وكان رحمهُ الله خاشع القلب رقيقهُ غزير الدمعة اذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاتهِ »

فلدى نقدي عواطف الكاتب وأمياله ، أيقنتُ انهُ كان محباً للسلطان رحمهما الله شديد الحب ، وانهُ لما لم تكن فيهِ حصافة المؤرخ البصير ، ولا خبرة السياسي الباقعة ، وقع في مناقضة القول ، وذم السلطان من حيث ظن انهُ يمدحهُ ، فان سلطاناً عظيماً وفاتحاً كبيراً كصلاح الدين ، كان لا بدّ لهُ من ان يدّخر دائماً في خزانته مالاً وافراً يستعين بهِ على تعبئة الجيوش ، وتوزيع الهبات والانعام على

وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا شيئاً من أنواع الاملاك . »

وقال في موضع آخر من التاريخ المذكور « ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس وقد عزم على التوجه الى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبهُ في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد . وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم مهمٌّ لعلمهم بأنه متى علم به اخرجه . »

وقال في موضع آخر « فركب على مضضٍ ورتّب العسكر وأول ما نزل من التل أُحضر بين يديه افرنجي قد أُسر من القوم فأمر بضرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الاسلام عليه وابائه عنه وكلما سار العدو . . »

وقال في موضع آخر « ولقد رأيته وقد جاءه خبرُ وفاة ولد له بالغ يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من

على انه لا يستحيل الوصول الى هذا الفرض أي نقد عواطف الكاتب في غير كتاباته الأدبية على من شدد التنقيب، وأكثر التنقير، وصدقت ارادته في تفهم مراده، كما سبق القول في صدق الارادة «في الجزء الأول» وهاك مثالاً لذلك.

لقد تحققت بهآء الدين المعروف بابن شدَّاد المتوفى سنة ٦٣٢ كان قليل البصر بالسياسة، قصير النظر في معرفة محاسن أهل الرئاسة، لا يعرف شيئاً من أحوال تدبير الملك وشؤون الحرب، مع انه كان متقرباً من السلطان صلاح الدين بن أيوب، بل لم يكن يفارقهُ كما يفهمُ من كلامهِ، ولكنهُ كان ورعاً، شفيقاً، سليم الطويّة، طيب السريرة؛ فان قلت كيف استيقنت ذلك؟ أجيب

أخذت كتاب النوادر السلطانية، والمحاسن اليوسفية، تأليف القاضي المذكور، وهو تاريخ السلطان صلاح الدين ألّفه بعد وفاته، فرأيته يقول فيه ما محصله

واما صدقة النفل فانها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال، ولم يخلف في خزانته الا سبعة وأربعين درهماً ناصرية،

وقد يتزيّا بالهوى غيرُ اهـله

ويستصحب الانسانُ من لا يلائمُهُ

وعلى الجملة فقد كانت حالهم خال من ذكرتهم لك في القسم الأول من أمم الغرب في القرون المتوسطة ، اذ كانت كتاباتهم ملازمةً طريقةً واحدةً من التقليد ، ولهذا السبب عينهِ ، تجد أكثر التآليف عندنا وأوسعها ، تآليف العلوم الدينية ، ثم يأتي بعدها الصرف والنحو ، لانهما يتعلقان بعلوم الدين أيضاً ، ثم اللغة لانها تتعلق أيضـاً بعلوم الدين ، ثم المعاني والبيان فالطب فالتاريخ ، وقلَّ ان تجد كتاباً في علم من هذه العلوم ، لم يتشفع مؤلفهُ الى القرآء فيـه بمقـدمة ، يوضح فيها مالذلك العلم من العلاقة بالدين ، وكل ذلك كما ترى ليس فيه شيء يدل على عواطف الـكاتب وامياله ، ولعل الخوف من جور المستبدين ، كان سبب تقييد الأَقلام عن الجري مع الطبع ، في ميدان الـكتابات الأَدبية ، وهي التي منها تُنقَدَ اميال الـكاتب وعواطفهِ ، أكثر من سواها ، بَيد انها أشد خطراً عليه في تلك العصور من سائر العلوم .

او يقرب من حالته شأن شعرآء الافرنج وكتّابهم المذكورين، وليس الامر كذلك لعهد عمر بن عبد العزيز الاموي ، والخلفآء العباسيين ، والسلطان صلاح الدين بن ايوب ، فان الاستبداد كان بالغاً حدّه لعهد الدول المذكورة ، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز متشدداً في دينه ، فلم يكن للكاتب ان يكتب الا ما يعلم أن لا حرج عليه فيه ؛ وأما كتّاب العصور العباسية ، فقد كانوا أوفر اطلاعاً وعلماً ، ولم يبلغ احد من الخلفآء العباسيين ، مبلغ الخليفة عمر الاموي من التشدد في دينه ، واما عهد صلاح الدين فقد كان اشبه بالقرون المظلمة عند الفرنج ، بل عصرهُ من تلك القرون نفسها ، وما نقص من التحمُّس والتشدد الدينيّ عند العرب في بلاد الشام — وهو المعروف لهذا العهد بالتعصب — استفادوهُ من غوغآء الفرنجة الذين دخلوها في الحروب الصليبية ، ولهذا فلم يكن سبيل للناقد الى معرفة عواطف المؤلف ، فقد يكون فيلسوفاً وهو يظهر الجهالة ، او شفيقاً يكره سفك الدمآء ، فيتجلد ويظهر العُنف والقساوة ولله درّ الشاعر

واقرب تحصيلاً ، اذا كان المكتوب او المصنوع من وحي القريحة ، فلو أنّا قرأنا قصيدةً كاحدى المعلقات ، او شيئاً من شعر شكسبير الانكليزي أو لامارتين الفرنسوي أو دانتي الطلياني ، او رواية تخييلية من روايات زولا أو دَانيّنسيو وامثالهم ، لتمكنّا من وصف اخلاق الناظم او الكاتب ، اكثر مما لو قرأنا كتاب تأريخ ، ولو أنّا قرأنا شيئاً من اقوال الجاهلية لتيسر لنا تحديد عواطف الكاتب او الناظم ووصف اخلاقه ، اكثر مما لو قرأنا شيئاً لكاتب من عهد عمر بن عبدالعزيز الاموي ، ولو نظرنا في كتابات معاصري الخلفاء العباسيين لكان نقد العواطف والاميال ، اظهر لدينا في كتاباتهم ، واوضح مما هو فيما كُتِبَ لعهد السلطان صلاح الدين الايوبي ، والسبب في ذلك أبسطهُ لديك ، وان كان قد سبق لي بسط شيء من مثله .

انت تعلم ان الشاعر عندنا في زمن الجاهلية ، كان مالِكاً مدى حريّة فكرهِ وفعله ، فاذا نظم شيئاً فهو مدفوع اليه بطبعه غير مقيَّد بسلطان من الغاب والاستبداد ، ومثله

لم أدرِ حينَ وقفتُ بالاطلالِ

ما الفرقُ بينَ جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيهٍ فقلتُ ومن أين لك ذلك ؟ قال من قولهِ ما الفرقُ اذ هي من عبارات الفقهاَءِ وليست من اساليب كلام العرب فقلتُ للهِ أبوكَ فانهُ ابن النحويّ .

أرأيتَ كيف كان حكم هذا الناقد سديداً ؟ الآ ان هذا من النادر اذ كما قدَّمتُ لك لا يكون الحكم صحيحاً في الغالب ، ما لم يرَ الناقد تكرار اللفظ او المعنى او الرمز او الشكل وما جرى مجرى ذلك ، وخصوصاً لكثير من شعراء وكتَّاب هذا العصر ، الذين يقع اللفظ او المعنى تحت اقلامهم ، لا عن ملكةٍ او سليقة ، بل لقلة التثبت او للتقليد .

القسمُ الثاني **الاميال أو العواطف** أو هي الاحداث النفسانية حال كتابة الكاتب ، ومصنوع الصانع .

اعلم أن نقد الاميال — في الكاتب وسائر المتفننين — وإيضاحها من كتابته ومصنوعاتهم ، قد يكون أيسر مطلباً

كلما توعدني تخلفني
ثمَّ تأتي حين تأتي بعذر
عمرك الله أما ترحمني
ام لنا قلبك اقسى من حجر
قلتُ لما فرغت من قولها

. . . .

ولا أزيد على ما اوردتهُ من شعره فكلّهُ على هذا النسق ، وأنت ترى مما ذكرتهُ لك من شواهد التكرار ، صدق ما صوَّرته لك من اخلاق هذا الشاعر ، وهي حقيقةٌ لا يشوبها ريب ، وتكرارهُ هذه المعاني والمناداة بكنيته ، أدلُّ دليل على مباهاته بجماله ، وتدللهِ بأصلهِ ومنزلته ، فان ما يقولهُ المحبُّون لمعشوقاتهم . قد جعلهُ هذا الشاعر في افواه معشوقاتهِ خطاباً لهُ ، فصدق بهِ المثل ، قد استنوق الجمل .

وقال ابن خلدون ما محصَّلهُ : حكى ابن رضوان قال أنشدت أبا العباس بن شعيب مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها لهُ وهو هذا

قريباً على سمت من القوم نتقي
عيونهمُ من طائفينَ وسمّرِ

ولا كان قائلاً :

فأنتَ أبا الخطاب غير مدافعٍ
عليَّ أميرٌ ما مكثت مؤمَّرُ

ولا كان يقول :

قالتْ لتربٍ لهُ ملاطفةً لَتفسدنَّ الطوافَ في عمرَ
قالت تصدّى له ليبصرنا ثمَّ اغمزيه يا أختِ في خفر
قالت لها قد غمزتهُ فأبى ثم اسبطرّت تسعى على أثري

ولا جهر بهذا الشعر

لم يَرُعني بعدَ أخذي هجعةً
غيرُ ريحِ المسكِ منها والقطرْ
قلتُ من هذا فقالت هكذا
انا من جشّمتَهُ طولَ السَهَرْ
ليتَ اني لم اكنْ علّقتُكُمْ
كلَّ يومٍ انا منكمْ في عِبَرْ

الخطاب رضي الله عنه وهذا خلاف ما نراه لسائر الشعراء وخصوصاً في الخطاب مع المحبوبة ، وانت تعلم ان العرب أجرت الكنَى للتعظيم ، ولم تكن لهم عادةً ان يسمُّوا انفسهم بها الا عند المفاخرة ، ولقد فليت تراجم مئتي شاعر أو يزيدون من الجاهلية والاسلام ، فلم أقع على غير ذلك ، ومعلوم ان المحبوبة ، تودُّ بالطبع ان يكون محبها فتىً يترقرق في عطفيه ماء الشباب ، ذا خفّةٍ ، يكادُ يعصرُ الظرف من شمائله ، وتودّ ان تدعوهُ باسمهِ وتناديهِ ان استطاعت بالتصغير للتحبيب قال الشاعر :

ما قلتُ حُبيّبي للتحقيرِ
بل يعذبُ اسمُ الشخصِ بالتصغيرِ

والعاشقون حقيقةً ، يرون الاتضاع بل التذلل لمن يهوون ، شرفاً وعزّاً قال الشاعر :

لا تدعني الّا بيا عبدَها ... فانه أشرفُ أسمآئي

فلو كان عمرُ هذا عاشقاً حقاً لما قال :

فقالتْ لِأَترابٍ لها ابرزَنَّني ... اظنُّ ابا الخطّابِ منا بمحضرِ

ربِّ قد شفّني وأوهنَ عظمي
وبراني وزادني فوقَ جهدي
ربِّ حملتني من الحبِّ ثقلاً
ربِّ لا صبرَ لي ولا عزم عندي
رب علّقتُها تجدِّدُ هجري
ذاك واللهِ من شقاوة جدّي
ليسَ حبي لها ببدعةِ أمرٍ
قد أحبَّ الرجالُ قبلي وبعدي

فاذ قد سمعت هذا الغزل الرقيق ، وشممت هذا المسك الفتيق ، بل ذقت طعم هذا الرحيق ، فتعالَ أريك سرَّ هذا المتصابي ، لتعلم اني لا افتري ولا أحابي .

اعلم ان الشاعر المذكور من قريش . وقريش كما تعلم هي اشرف قبائل العرب ، ولما كان اسمه عمراً ، كانت كنيته ابا الخطاب على ما هو معلوم من امر الكُنى عندهم ؛ وحنتمة ام عمر بن الخطاب هي بنت عم ابيه . فكان فخوراً بحسبه لا يُحب ان يُدعى الا بكنيته تقليداً أو تشبهاً بعمر بن

ومحاسنها . ان كان ممن أوتوا ذوقاً سليماً وقلباً عليماً .

وهاك مثالاً يدعم هذه الحجة ويهديك سوآء هذه الحجة ، لو قلت لك ان ناظم الابيات الآتية ليس بالعاشق الولهان وانما هو شاعرٌ معجبٌ بنفسه تيّاه ، مُدِلٌ بحسنه ونهاه . وقد يكون غير جميل الوجه ولكنهُ يحسب انه الجميل ، لعجبتَ من قولي هذا ورميتني بالافترآء ، بل لو لم تكن من أهل الادب ، لاستفزّكَ الغضب ، وأوجبت عليّ سخط السمآء ، وغيظ أهل الرقاعة والسخافة وسائر الحمقآء . ولكن متى كشفت لك سرّ حجتي كنت لي من الناصرين .

أما هذا الشاعر فهو عمر بن ابي ربيعة الذي سحر العقول برقته ، وأسكر الارواح برشاقته ، وتصرّف بالشعر غزلاً ونسيباً ، وعتباً وتشبيباً ، تصرّفاً لم يأتِ به قبله شاعر بل أتعب من جآء بعده من خاصّة الشعرآء قال :

ولقد قلتُ اذا تطاولَ هجري

ربّ لا صبرَ لي على هجرِ هندِ

الكاتب ، ومعرفة المتفنن أتمّ المعرفة ، واليك تفصيل ذلك :

القسم الاول التكرار جاء في الامثال العامة ان الرجل لا تدب الا الى من تحب ؛ وأنت اذا أعطيت هذا المثل حقه من التبصر وجدته سديداً ، وقل في مثل ذلك عن كل ما يميل اليه المرء من أحوال العيش ، فمن أحبّ لوناً من الطعام كرّر أكله ، أو شكلاً من الملبوس كرّر لبسه . أو أغنيـة كرّر انشادها أو استنشادها ، أو كلمةً أو عبارةً أو بيت شعر ، ومنه المثل من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره ، فالناقد الذي يودّ معرفة صانع الشيء المنقود ، أي المتفنن . معرفة صادقة لا يشوبها شيء من الغرض ، ولا يخفيها حجاب ، يتحتم عليه ان ينظر الى الشيء المتعدد من مصنوعاته . اذ كما تقدم القول في فصل سابق ، لا يمكن الحكم بذلك من النظر الى مصنوع واحد ، فانه ان أصاب مرةً أخطأ مرّات ، فاذا ما زاول ذلك طالب هذا العلم ، وثابر عليه المرة بعد المرّة ، لا تلبث ان تستحكم منه ملكة النقد ، ويسرع في كشف الغطاء عن أسرار المتفننين وعيوب الصناعات

المطعوم ، في صحافٍ من الفضة ، بين اكواب موضوعة ، من بدائع البلور ، كأنها مطالع نور ، وأوانٍ مبثوثةٍ مرفوعة ، فيها رحيق مختوم ، معتّقٌ من عهدٍ غير معلوم ، والى جانبه غانية كأنها من حور الجنان قد قامت

فألقتْ قناعاً دونهُ الشمسُ واتّقتْ

بأحسنَ موصولينِ كفٍّ ومعصمِ

وراحت تعاطيهِ من خمرة غنجها ودلالها أطيب كأس ، وتشغف قلبه بحديث هو السحر الحلال فيحسب انه في نعيم مقيم . وتالله ان ما يوحى اليه من الخواطر لا يحلم بهِ ذلك البدويّ المضيم ، ولا ينزل على قلب ذلك الشيخ السقيم .

واعلم ان قاعدة نقد القائل هذه ، هي الموصلة الى معرفة ما تقدم بسطه ، وبعبارة أخرى الى معرفة قائل أو صانع الشيء المنقود ، وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام التكرار ، والاميال « أو العواطف » والغرض ، وقد تجتمع كلها في عبقريّ واحد ، وقد لا يجتمع فيه سوى قسمين أو علامتين ، وقد لا يظهر للناقد غير قسم واحد ، يكفي في استقراء مقام

أو التليينة ، كتخيلات القرويّ الذي أمن اعراض الطبيعة من حرّ وبرد في بيته المبني بالطين ، وقد لبس العباءة واحتذى النعل ، واكل اللحم المطبوخ وشاهد أزهار البساتين ، وذاق طعم قرار العيش في قريته آمناً على سربه : ولا هذه كابتكارات الشاب الحضريّ وقد لبس الحرير والطيلسان ، أو طالت ملابسته لها ، وتختّم بالياقوت والمرجان ، أو عاشر من ملكها ، وجالس الظرفاء والندمان ، وتنقل بين الآسّ والريحان ، وسمع مطربات الالحان ، وظل يخطر بين الكأس والوتر ، ويرى رقص العندليب على الاغصان ، بل رقص القَينات الحسان .

الفاتنات القاتلات المحييا ت المبديات من الدلال غرائبا

وهو يداعبهنّ بمحاسن الكلام وظراف المعاني ، ويتشمم من معاطف أثوابهنّ الحريرية نسيم طيب يزري بعرف الند والعنبر والماء يجري أمامه كاللجين الذائب في أحواض من المرمر ، ويسيل على حصباآتٍ كأنهار الدرّ والزبرجد ، وقد مدّت بين يديه مائدة رفعت عليها أطايب المشموم ، ولذائذ

الفصل السادس عشر

في

القاعدة الثانية

نقد القائل والصانع

لا بدّ للناقد من أن ينظر ان كان المنقود عمله رجلاً هو أو امرأة ؟ وهل هو شاب أو كهل أو شيخ ؟ وهل هو بدويّ أو قرويّ أو حضريّ ؟ وهل هو غنيّ أو فقير ؟ حزين أو مسرور ؟ الى غير ذلك من الاحوال التي تقدم وصفها فيما سبق من الفصول ، فليست خواطر الفتى اليافع والآمالُ تبسمُ لديه ، والصحة وقفٌ عليه ، كافكار الشيخ وقد جانبهُ الاطيبان ، وعركهُ الزمان ؛ ولا تصورات البدوي ولا منزل له غير بيتٍ من الشعر ولا مطية غير البعير ، ولا بستان غير القفر ولا ظلة تقيه الهجير ، ولا زهر غير الشيح ، ولا كسوة غير القميص ، ولا طعام غير السخينة ، أو العصيدة

فينتج مما تقدم بسطه ، انه لايجاد هذا الروح الحي أو ما يقوم مقامهُ في المصنوعات العقلية [١] واليدوية ، كيما تحصل في الذهن الصورة الاصلية ، وتتجدد في النفس الاحداث التي شعر بها الناظر أو السامع الى الأصل المحاكَى ، لا بد للكاتب ، أو الناظم ، أو المصور ، وعلى الجملة لكل متفنن ، من المبالغة المقبولة ، كأن يزيد عما في الاصل المسموع ، والمنظورات الحية ، شيئاً من التحسين اللفظي وهو معروف في علمي البيان والبديع ، ومن التزويق والتنميق والبريق . في الكتابة والتصوير والنقش . الى حد يخيل للقارئ والمعاين انه نفس المحاكَى . وقد أشبعت القول في هذا الباب قصد تمام الفائدة والله ولي الهداية .

---

(١) قد يقال ان الاعمال العقلية محتاجة الى العمل اليدوي كالشعر والانشاء . الى الكتابة ، وان المصنوعات اليدوية محتاجة الى العقل . كالتصوير والنقش . فاذاً هذا التعريف غير كاف . فأجيب هذا التعريف قد اصطلح عليه أكثر الأدباء والكتاب . واصطلاحهم ينفي الجهالة .

من شكل واحد ، أو بعبارة اخرى بين آنية مستعملة سليمة من كل عطب ، وبين جديدة من شكلها ، وجدتَ انَّ الذي يرغبك في الجديدة ويحسنها في عينيك ، ليس غير بريق اشعتها ، وقد سمّى بعضهم هذه الاشعة ، أو هذا البريق ؛ أو ما يجمع ذلك كله ؛ وهو الحسّنُ المرغّبُ الذي يدفعك الى تفضيل هذا على ذاك ؛ روح حياة ؛ ويعجبني هذا التعريف اذ ان أصوات الخطيب والشاعر ، ونبراتهما ، واشاراتهما ، وانسان عين المعشوقة ، أو كل مخاطَبٍ اذ يقع بريقهُ على انسان عينك ، بل أشعة الآنية نفسها وحركتها ، كل ذلك فيه روح حياة لا يوجد فيما خلا منه ، وهو يخفي كثيراً من عيوب الشخص ، او الشيء ، وبعبارة أخرى ، يشغل الفكر حيناً ، أو يلهيه هنيهةً عن نقد عيوبه ، وبالجملة ، فللعيان سرٌّ دقيق ، ولله در الشاعر:

اذا ما غابَ شخصُكَ عن عيوني
فانّكَ في الحشا أبداً مقيمُ
ولكن للعيانِ لطيفُ معنىً
لهُ سألَ المعاينةَ الكليمُ

نقص في صناعة تصويرها ، كأن يكون من نقص شَمَمٍ في الانف ، أو من سعة في الشدقين ، أو استرخاء في الاذنين ، أو أثر خمش في الخد ، أو غضون في الوجه الى غير ذلك من نقص محاسن كنت تحسبها على ذلك الوجه بادية ، او عيوب كانت عليك خافية .

ومثال ذلك فيما لو سمعتَ خطيباً على منبر ، أو شاعراً تنشد قصيدة في محضر ، لاستحسنت قوليهما فوق استحسانك ما تقرأهُ لهما من خطبة أو قصيدة قد تكون ارفع طبقة مما اسمعاك ، ومن ذلك المثل ، اسمعهُ ممن قاله تزدد به عجباً ، وقس على ذلك ما تشاهدهُ من الآنية الذهبية أو الفضية أو الغضار الصيني ، فان لم يزد المصور في تمتيقها ، ويذهب في تزويقها ، لابصرت الصورة دون المصوّر في الحسن والاتقان ، ولعل السبب في ذلك كله ، ما يسميه المصوّرون « الظل » أو « ظل النور » ، أو « الاشعة » ، وانت اذا انعمت النظر في فعل الاشعة وابريقها ، رأيت مكان الحكمة من هذا القول ، واذا وازنت بين آنية جديدة وآنية قديمة

وكثيرون امثال هؤلآء الاكابر ، الاّ لانهم قصدوا محاكاة من سبقهم في فنهم ، بل راموا سبقهم ، فتم لهم ذلك بفضل اتقانهم ، واصابة نظرهم ، وحسن ذوقهم .

والمحاكاة من اعسر ما يتجشمهُ المتفنن ، وقد زعم بعض النقادين انهُ لا يجوز للواصف ، ان يتجاوز حقيقة الموصوف إن لفظاً ، أو تصويراً أو نقشاً أو غير ذلك ، فان تعدّى حقيقة المحاكاة بسائر اجزآئها ولو بالتحسين ، كان عمله حرياً بالتعقيب والتغليط .

بيد ان العالم تاين ، اشهر نقادي القرن المنصرم قال في كتابه «فلسفة الصناعة» بجواز ذلك ، بل بوجوبه في كثير من الاحوال . زاعماً انه مهما توفرت شروط الدقة والاتقان ، والبراعة في الوصف والتصوير ، فقد تقصر في كثير من الاحيان ؛ بل ربما كان ذلك عاماً ؛ عن التأثير الذي تؤثره الحقيقة في السمع والعيان ، وهذا بالحقيقة كلام ناقد بصير . ألا ترى انك لو عاينت صورة من تحب مصورةً ببراعة هي الغاية ، لما تمالكت بعد التفرس فيها من الاعتراض على

الابتداع والابتكار ، وجعلت المتفننين كلهم محاكين بعضهم بعضاً ومقلدين .

فاجيب ان كان المراد بالابتداع والابتكار ، الخواطر العقلية ، او المعاني المجازية التي تعرض للشعراء وسائر المتفننين ، فهذه لامحاكاة فيها ، لانها ليست من الافعال البشرية ، بل هي نتيجة البنية أو الفطرة الطبيعية ، والتربية ، والتعليم ، وثمرة المؤثرات الخارجية من طبيعية وغيرها ، كاعتدال الهواء أو عكسه ، والشبوبية أو الكهولية ، وحالات الصحو أو مايدنو من السكر ، وانبساط النفس أو انقباضها الى شيء كثير من مثله ، وان كان المراد بالابتداع والابتكار ، الاتقان والاحكام والبراعة وبلوغ غاية التمام في الصناعات الجميلة وغيرها ، فهذا لا ارى فيه سوى المحاكاة مع زيادة الاتقان والترقي في العمل ، اذ لم ينبغ رافائيل سانزيو في تصاويره ، وميخائيل انجيلو في منحوتاته ، واسحق النديم في غنائه ، وايفيل في هندسة برجه الشهير ، وساره برنار في براعة التمثيل ، وابن معتوق في تشبيهاته ، وابو فراس الحمداني في شرف اللفظ وعذوبته ،

وغرّد البلبل فغنى الانسان طرباً محاكياً له ، وأنشد الشاعر الشعر ، فأطرب ، فحاكاه شاعر آخر في النظم ، على اختلاف في اللفظ أو المعنى أو القافية ، وخطب الخطيب في القبيلة ، يحثهم على أخذ الثار ، فخطب خطيب آخر يحاكيه . وروى الراوي أخبار من تقدمه ، من أهل قبيلته أو أمته وكتبها ، فسمي مؤرخاً ، وحاكاه آخر فكتب أخبار أمة أخرى ، وكتب العالم بعض قواعد علم من العلوم ، أومباديه ، فنسج عالم آخر على منواله فكان له محاكياً .

ولبست الحسناء ثوباً طويل الذيل ، فاستحسن على قدها الممشوق فحاكتها جارتها ولبست مثله ، وعقصت شعرها البديع أو سبلته على ظهرها ، فحاكتها بذلك جاراتها .

ورأى الملك العظيم آثار الهياكل الفخيمة التي رفعها من تقدمه من الملوك ، فأمر ببناء امثالها أو افخم منها ، ونظر الامير الى القصر البديع الذي بناه ابن عمه ، فاوصى ببناء مثله ، فكانوا بذلك محاكين سواهم .

وقد يعترض معترض فيقول ، انك بهذا الرأي جحدت

الطبيعة ومحاكاتها ، في جميع صناعاته ، فكأني به قد راقب الزنبور والهدهد وغيره من الطير تطلي عِشَشَها بالجصّ ، فطلى بنآءهُ وتفرس نسج الليف وما شاكله في النبات ، فنسج الشباك والخيام وغيرها ، وشاهد حبة الخردل تسقط على الارض فاذا هي شجرة بعد حين ، فنقل في ظعنه حبوب الحنطة ، والشعير ، وغيرهما ، فزرعها الى غير ذلك من الصناعات الاولية .

ثم لما تمت له الحاجيات ، ووصل الى دور الكماليات ، لم يجد بداً من محاكاة الطبيعة في أعماله ، فحفر ونقش وصوّر على الخشب والحجر والآجرّ صور النبات والحيوان والانسان والماعون بل السمآء وأقمارها ونجومها ، ثم ان هو نظر زهرة أو ثمراً أو ورقة نبات أعجبته ، صنع مثلها من الخزف والفضار ، وان نسج طنفسة أو غيرها ، طرّز عليها صورة أرض بستان ، أوحوض مآء ، أو أشجاراً ، أوطيوراً وأسماكاً ، لكنه لم يجعل السمك على الاغصان ، ولا البركة فوق الشجر ، بل حاكى الطبيعة في نظامها .

واعلم ان المحاكاة تعرض للبشر في اكثر أفعالهم كما صرّح بذلك ارسطو ، فأول ما عرضت لهم ، في ألفاظهم ، فانهم في اكثر اللغات قد سموا طائفةً من الافعال بأصواتها كقول العرب ، حفيف الشجر ، خشخشة الثوب الجديد ، صرير القلم ، خرير الماء ، هرير الكلب ، دق الباب ، قعقعة السلاح ، وغير ذلك مما هو كثير ، وقد أفرد له العلماء باباً مخصوصاً في ابحاثهم عن أصل اللغات وفلسفتها ، فلا أطيل عليك منه ، بل حسبك ما ذكرته لك ، شاهداً على محاكاتهم في ألفاظهم ، أصوات الافعال ، من الجماد والنبات ، والحيوان .

ثم نظروا الى ما احكمت صنعه يد الطبيعة من المغاور في الجبال وغيرها من الارض الجبلية ، فحاكوها ببنائهم بيوتاً تشبهها في أوّل أمرهم ، وحداثة شأنهم ، ثم رأوا كيف يصطاد الباشق العصفور ، وكيف يقع الذئب في الغنم ، فاصطادوا الاسماك وقنصوا الظباء فأكلوها واكتسوا بجلودها فحاكوا الحيوان في أفعاله .

ثم لما تقدم الانسان في المعارف لم يألُ جهداً في تقليد

تفهم من ذلك ، ان كل قول أو مصنوع ، تحصل منه الفائدة التي يتوخاها صانعه ، بل على الناقد ان ينظر في ذلك بتثبت ، فان وقع بعد التمحيص على الفائدة المرومة ، أوضح ذلك في نقده وان وجدها متقاصرة عن المقصود بسط للقارئ والسامع مواضع القصور والنقد وأسبابه ، وان زادت على أمل المخترع ، أتى بالبيان على ذلك جميعه ودعمه بالبرهان المبين .

ومثال القسم الثالث وهو المحاكاة اذا نظرت في كتاب مقامات الحريري وانتقدته من هذا القسم رأيته في صنيعه هذا ، قد قصد محاكاة بديع الزمان الهمذاني والتشبه به . واذا انتقدت تصاوير سيلّيني من هذا الوجه تجده قصد محاكاة ڤينجي ، واذا انتقدت منحوتات ميكيلّوا انجيلو رأيته احتذى أمثلة مشاهير النحاتين من اليونان ورام محاكاتهم ، واذا انتقدت نابوليون الكبير رأيته انه كان يروم بأعماله العظيمة محاكاة انيبال والاسكندر ، وابرهيم الموصلي قصد محاكاة معبد أو جريح بالغناء

من كتابه هذا ، فاقت حدود امله ، وقد فعل في تصنيفها ، ما فعله العالم جول فرن بعده ، من تضمينه الحقائق العلمية في قوالب الحكايات ، ومقامات الشيخ جزيلة الفوائد ، لا يعلم قدرها الا الراسخون في العلم ، المتقدمون في الكتابة والنظم.

واما شعر المتنبي فقد كان يتطلع منه الى ثلاث فوائد الاولى المال ، والشهرة ، والجاه ؛ والثانية تصوير الوقائع الحربية بالوصف البليغ ، وتدوينها لتظلّ عبرةً وأثراً تأريخياً ، ثم تحميس الجنود ، واطراء الممدوح اطراءً يلذّ له ؛ حتى ينال ما يرجوه من مال وجاه ؛ والثالثة التعبير عن وجدانات نفسه ، من غرام وافتخار ، ونثر حكم استفادها بسمو ذكائه من عبر الايام ، ومراقبته أخلاق البشر ، الى أن سار كلامه مسير الامثال كما أشار الى ذلك بقوله :

وما الدهر الاّ من رواة قصائدي
اذا قلتُ شعراً أصبحَ الدهرُ مُنشدا

وأنت اذا نظرت في شعره وأعطيتهُ حقه من صدق النقد ، تبيّنت ان الفوائد التي قصد لها قد تحصلت . ولا

فاقت غاية مؤلفهِ ، وبلغت اضعاف ما قصدهُ ، بل انهُ ولا ريبَ لم يحلم بها ، فانهُ كما تعلم ، قد وضعهُ لتعليم وارشاد ابناء بعض ملوك الهند ، أو انهُ وضعهُ للملوك والامرآء انفسهم على لسان الطيور والبهائم ، وكله حكمةٌ ، وارشاد ، وتعليم لكف الجور عن الرعية ، ونصرة المظلوم ، وايضاح عواقب البغي والبطر ، والحذر من اهل المداهنة والخداع ، وذوي الخيانة من المتقربين ، واعطآء الناس حقوقهم ، وعلى الجملة فهو درس الحقوق والواجبات بين الملوك والرعية ، وبين رب البيت وعياله ، وبين الفرد من الناس واصحابه ؛ وحسبك ان تقدر عظم فائدته اذا كنت ذا لب ، وقد ترجم الى كثير من اللغات ، وهو ليس كتاب صناعةً ولا علم .

واما كتاب مقامات الشيخ ناصيف ، فهو آيةٌ من آيات الفصاحة ، واذا نظرت بعين الناقد المنصف ، الى ما فيه من الفوائد العلمية ، وجدته من اكمل الكتب الادبية ، فقدجمع فيه مؤلفه . متفرقات وشوارد . يحتاج الاديب الى التفتيش عنها في مئة كتاب من كتب الادب ، والفائدة التي تحصلت

تاريخ الكامل ، كان أصدق روايةً ، وأكثر تثبتاً فيما نقل ، من كل مَن تقدّمه من المؤرخين ، وان الطريقة التي سلكها في تاريخه هي المثلى ، وان فائدة التاريخ لا يفي شرحها فصل من فصول هذا الكتاب بل إخالك لا تجهلها وقد وقفتَ على شيء منها قبل درس هذا الكلام .

واما مقدمة ابن خلدون فقد اجمع اهل الارض من كل مَن نُقلت الى لغتهم على انها كتاب فلسفةٍ على المجتمع الانساني ، بل مجموعة علومٍ وفنونٍ ، بل كنز معارف لذلك العهد لا يفي ثمنه كنزُ مال ، وأما ما أودعها من براعة التعبير والفصاحة والبلاغة ، فما يقصر عنه كل وصف ، وحسبك ان تعلم انها اجلّ كتاب وضع في اللغة العربية ، واسمى سفر أصبح قاعدةً يجري عليها الكتّاب الاعلام ، في الفصاحة والبلاغة ورشاقة التعبير ، واذا قيل ان فلاناً ينهج في الكتابة سبيل ابن خلدون ، فقد حاز من المدح والثناء ، ماتسجد لعزته اقلام الشعراء ، فهل بعد هذه الفائدة من فائدة ؟

واما الفائدة التي تحصلت من كتاب كليله ودمنه ، فقد

من الاسباب الكثيرة؛ وقل مثل ذلك عن الحصن فاما لاتساع مراميه وطاقاته، أو لانفتاح مداخله، أو اضعف في أساس البنآء أو لغير ذلك.

أما الابريق فلا بدَّ لك من المام بالهندسة أيضاً، ومعرفة ولو قليلة بصناعة الخزف، لتعلم هل كان ذلك عن اعوجاج في الابريق، ام عن نقص آخر في شكله الهندسي؟ أم لقصور في نخل ترابه وعجنه أم لنقص شرط من شروط شيّه؛ وان كنتَ أنكرتَ فوائدهذه الأشياء المذكورة لجهلك أسباب عيوبها، فقد ألبست اسمك من العار ثوباً طويلاً، وخيّبتَ بك ظنون الاوليآء، فان فوائدها لاتتوقف على معرفتك أو جهلك، ولا وهمك أو زعمك، بل عليك ان تحيط علماً بالمعارف اللازمة لحسن النقد، وايضاح النقص الذي أضاع الفائدة المرجوّة ان كان ثمت شيء من ذلك.

وأما أصحاب التآليف من الكتاب والشعرآء، فاذا نظرت في الفائدة المتحصّلة من تآليف من ذكرتهم لك على سبيل المثل وكنتَ من البصيرين، تجد ان ابن الأثير صاحب

حكايات كليله ودمنه غير مفيدة أو عرية من المعنى ، أوكأَن ترى مقامات الشيخ ناصيف خالية من الفوائد العلمية ، والبراعة الادبية ، أوكأَن يبدو لك شعر المتنبي خلياًّ من الانسجام بعيداً من الاتقان عرياً من الحكم والامثال ، لا فائدة منه .

قلتُ لوانك عند نقدك ووصولك الى هذا القسم رأيتَ بعد بحثك عن الفائدة ، انها لم تحصل ، أو وجدتها دون غرض أصحاب تلك المصنوعات ، فانظر أولاً لنفسك لتتحقق هل لديك العدة اللازمة لمعرفة النقص المزعوم ، أم كان ذلك عن قصورٍ منك في معرفة وتمييز الفائدة ولله در القائل :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتهُ منَ الفهم السقيمِ

فلو كنت على المام من فن الهندسة ، لعلمتَ ان الصوت لم يصل إلى البعد المقدَّر اما لأن موضع المأذنة لم يكن صالحاً لذلك ، أو لأنه لم يكن وراءها جبل أو هضبة تردّ الصوت بفعل الهوآء من ناحية لأخرى ، أو لأَن لا سقف فوق رأس المؤذن يحفظ الصوت من كل الضياع ، أو لغير ذلك

عناء، مع توفر الحظ من النظر اليه، وغاية المؤرخين والحكماء والكتاب والشعراء، تدوين الماضي في بطون الكتب تخليداً لذكر الاولين والذاهبين، وعبرة للمعاصرين والآتين، وارسال الحكم النواصح والتحذير من الضار والتحريض على النافع، ووضع اساسات علوم وفنون وصناعات لاعدد لها، وشرحها وتمهيد سبلها، والترنم بمكارم الاخلاق والحث عليها، الى ما يندرج بين ذلك مما يفوق الاحصاء.

ومثال القسم الثاني وهو الفائدة كأن تجد ان الصوت لم يصل من المأذنة الى البعد المروم، أولم يدفع الحصن غارات المحاربين ولم يصد هجماتهم، أوانه سقط على من به، أو ان الابريق لم يفِ بالمطلوب فاندفق الماء منه دفعة واحدة، أو انصبَّ على غير استقامة، أو كان غير مستقيم الوضع، او رشح ماؤه، أو ان ابن الاثير لم يكن في بعض ما رواه عن غيره في تاريخه اميناً، أو كأن تجد عبارة ابن خلدون في مقدمته غير صريحة، أو ليست بليغة فصيحة، أو كأن تجد

ولا يسيل الدهان ، ولا يمس التصوير اقل عيب أو تغيير ، الى غير ذلك مما يستدعيه صنعه من العناء والبراعة ؛ لم تكن غاية صانعه الا تمضية الوقت أو لا غاية له من صنعه البتة ، لجزمت باختلال عقل الصانع . ومثل ذلك ايضاً لو توهمت ان ابن الاثير في تاريخه ، وابن خلدون في مقدمته ، وصاحب كليله ودمنه في حكاياته ؛ والشيخ ناصيف اليازجي في مقاماته والمتنبي والمعري في قصائدهما ومقطعاتهما ، وغير هؤلاء من كل من كتب أو ألف شيئاً ، ان تآليفهم وما كتبوه مطاوعة القلم لايديهم ، أو خطرات خطرت في بالهم فقطعوا بكتابتها الاوقات لاخذك العجب من ذلك ؛ ولكن متى بحثت عن الغاية ، ووقفت عليها ، عرفت ان صانعي تلك الصنائع ، وكاتبي تلك البدائع ، كانوا على بينةٍ من امرهم وكانوا من الراشدين .

فان غاية صانع المأذنة ، هي ايصال الصوت الى مكان بعيد ، وغاية صانع الحصن الدفاع عمن في الحصن أو حوله ، من الجنـد وغيرهم ، وغاية صانع الابريق هي حفظ الماء به وغيره من السائلات ثم صبها منه بصورة محدودة دون وافر

وهاك لزيادة البيان امثلة الاقسام الثلاثة :

فمثال القسم الاول وهو الغاية اذا مررنا على مأذنة ، او حصن ، او قصر ، ولم تكن وقعت ابصارنا على شيء من مثله ، فأول ما نسأل أو نقول ، ما هذا ؟ ولمَ هذا ؟ اي اننا نروم الوقوف على غاية صانعه ، ومثل ذلك لو رأينا ابريقاً ، او مائدةً ، او سريراً ، او بندقية او غير ذلك من كل ما يقع تحت الابصار ولم يكن لنا به ، أو بوجه استعماله سابق معرفة :

وعليه ، فمتى اتضحت للناقد غاية الصانع أو الكاتب ، انحل لديه بعدها كثير من العقد العسيرة .

فلو انك تصوّرت ان المأذنة ، او الحصن ، لم تكن الغاية من بنايتهما على تلك الصورة من الهندسة ، إلا سكنى احد الناس ، لحكمت بفساد رأيه . ولو قيل لك ان الابريق المصنوع بشكل هندسيّ موزون ، منَ الخزف الدقيق ، المعجونة طينته عجناً بالغاً غاية الاتقان ، والمدهون بالالوان الزاهية وقد صورت عليه رسوم الازهار والطيور بغاية البراعة ، وشوي في النار في حرارة موزونة بغاية التدقيق ، كيلا يتكسر الخزف

من ذلك العمل بيعها والربح منها ، وتجد خالداً يؤلف كتاباً يصف به مساوئ الاخلاق الدنية ، وغايته من التأليف حض القوم على اجتنابها والابتعاد عن اهلها ، وفائدته من ذلك خدمة وطنه أو الانسانيـة كلها بالارشاد والهداية . وهذه فائدة ادبية ، وقد تقترن بفائدة مالية كأن يقبل الناس على كتابه فينفق ويربح من اعادة طبعه .

القسم الثالث وهو **المحاكاة** يبحث فيه الناقد عن المحاكى الذي قصد صانع الشيء المنقود محاكاته والتشبه به ، اذ سلسلة المحاكاة في البشر طويلة ، وقدمها يصعد الى الانسان الاول ، ويدوم على الارض بدوام الانسان ، كما سترى ذلك مفصلاً في الامثلة الآتية ؛ ينتج من ذلك ، ان كل من صنع شيئاً ، من الصناعات الجميلة اوسواها ، فقد نسج على منوال من تقدمه في تلك الصناعة ، او اتخذ منوال غيره قاعدةً ، رسمَ عليها منوالاً آخر ، وفي جميع الاحوال يكون المنقود محاكيا من وجهٍ او اكثر مصنوعاً آخر ، فعلى الناقد ان ينظر ان كان المنقود قصّرَ عن المحاكى او فضلهُ .

تجهل ، ان لكل عمل غاية ، وتختلف غايات العاملين والناظمين ، بقدر اختلاف مصنوعاتهم ، وتتفاوت رتب المصنوعات ، بقدر تفاوت قرائح الصانعين والمصنوع لهم ، فعلى الناقد ان يضع نصب عينيه عند النقد ، مبدأ اولياً اساسياً ذاك ، انه لا عمل بلا غاية ، ويعلم ان بحثه عن الغاية يكشف له كثيراً من اسرار النقد ، ويمهد له طائفة من العقبات ، فان فاته النظر في ذلك ، كان كمن يريد ان يتقن صناعة الطب ، دون ان ينظر في علم التشريح .

والقسم الثاني وهو الفائدة يبحث فيه الناقد عن الفائدة المقصودة من عامل الشيء المنقود ، وقد يظن بعضهم ان الغاية والفائدة واحدة ، وهو وهم محض ، فالغاية هي المقدمة والفائدة هي النتيجة ، وبعبارة اخرى ، ترى زيداً يزرع ارضه أو يأمر بزرعها ، وغايته الحصول على القمح أو القطن أو غير ذلك ، فاذا اثمرت الارض ، اكل الثمر أو باعه فاستفاد من ثمنه ، أو اكله ، وترى عمراً ينشئ معملاً ويجلب له معداته ، وغايته من ذلك عمل الاواني الخزفية أو البلورية ، وفائدته

الفصل الخامس عشر

في

نقد القول والمصنوع

هذه القاعدة تنقسم الى ثلاثة أقسام وهي : الغاية ، والفائدة ، والمحاكاة .

فالقسم الاول وهو الغاية يبحث فيه الناقد عن غاية المنقود عمله من الكتّاب والشعرآء وسائر المتفننين ، [1] اذ انك لا

(١) والمتفننون جمع متفنن وهذا اللفظ هوتعريب كلمة Artirtes الفرنسوية والمتفننون هم اهل الفنون الجميلة أو الصناعات الجميله وهي بالفرنسوية Bean Arts وهذه الصناعات هي الهندسة والتصوير والنقش والحفر .والموسيقى .والتمثيل في الملاعب.اما الشعر ،والكتابة ، والخطابة فهي في رأس الصناعات الجميلة . وللبارع من هذه الفنون يقال عبقريّ فاذا رمت تعريب Artiste de grand genie قلت متفنن عبقري. قال في فقه اللغة اذا كان حاذقاً جيد الصنعة في صناعته فهو عبقري . وهذا الاصطلاح كنت شاورت به شيخنا المأسوف عليه اليازجي فاستحسنه ونشر شيئاً منه في احد اجزآء الضياء من السنة الثامنة

ثلاث وهي الشرح ، والتبويب ، والحكم

واذ قد اوضحت لك الشرح وشروطه ، والتبويب وما هو متعلق به من طريقة الموازنة ، فكان يتحتم علي ان ارتقي بك الآن الى الدرجة الثالثة وهي الحكم .

ولكن لما كان الحكم ، هو الدرجة الاخيرة العالية من درجات النقد ، وجب على الصاعد اليها ، ان يكون مزوداً بكل ما يؤهله إليها ، كيما يكون حكمه سديداً ، ولبلوغ ذلك ، رأيت ان افرع مما تقدم بيانه ، خمس قواعد ، تمهد لك سبيل الحكم وهي هذه :

القاعدة الاولى : نقد القول والمصنوع

القاعدة الثانية : نقد القائل والصانع

القاعدة الثالثة : نقد المقول فيه والمحكي عنه

القاعدة الرابعة : نقد الزمان

القاعدة الخامسة : نقد المكان .

وقد عرف الانسان منذ تدرجه في سلم الحضارة، منافع الموازنة في المعادن، والنبات، والحيوان، ووازن بين المعادن فعرف من ذلك الاثقل من الاخف، والصُلب من الهش، وبين النبات فعرف النافع من الضار، والمفيد من من الاقل فائدة، وبين الحيوان فعرف ما بين طوائفه المتعددة من الاختلاف في الطباع والتكوين والافعال الى غير ذلك، فكانت الموازنة عوناً ومرشداً للانسان في جميع احواله، ومن ذلك تعلم انها لا تقتصر على الكماليات، بل فائدتها في الحاجيات أعظم. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون.

الفصل الرابع عشر

في

القواعد الخمس لتمهيد قاعدة الحكم

قد علمت مما ذكرته لك في الفصل الاول من القسم الثاني انه لا يمكن الوصول الى النقد السديد، الا بارتقاء درجات

الشاعر مؤرخ مفاخرهم ، ومعدد انسابهم ومؤبن قتلى حروبهم وخطيب انديتهم ، ومشجع ابطالهم ، ومعلن مكارمهم ، وصدى حكمتهم ، وترجمان عواطفهم . قال ابن رشيق كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر ، أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبنَ بالمزاهر كما يصنعنَ في الاعراس ، وتتباشر الرجالُ والولدانُ لانه حماية لاعراضهم ، وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، واشادة لذكرهم ، وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج . انتهى كلامه . فانظر أي مقام كان لنوابغ الشعراء عندهم ، ومثله شاعر الغرب من الافرنج ، فان له عندهم المقام الاول لهذا العهد .

ولو كانت الموازنة مقصورة على ما تقدم ، أي تحديد مراتب الشعراء والكتاب ، وبيان فضل احدهم على الآخر لما استحقت ان تكون ركناً من اركان علم النقد ، ولكنها للصناعات الجميلة عماد ، ولسائر العلوم ركن ، بل هي لكل الصناعات خير مرشد ومعلم وفاروق .

الدول العربية في الترف ، واستبداد الخلفاء ووزرائهم في الملك ، على مدحهم بكل ما تصوره لهم مخيلاتهم من الاوصاف التي تفوق طوق البشر ، وتجاوز الحقيقة بمراحل ، مجاملةً وخداعاً ، للوصول الى اعطياتهم ، ثم انقطاع كثير من هؤلاء المادحين ، الى معاقرة الخمر ، وجلوسهم في الحانات ، وصرف اوقاتهم جزافاً ، الى ان حُسِبوا آخر الامر في عداد المتسولين ، وهذا ما دعا الامير ابا فراس الحمداني ، ان يأبى لقب شاعر فقال :

نطقت بفضلي وامتدحتُ عشيرتي
وما أنا مدَّاحٌ وما انا شاعرُ

وهذه الحالة بعينها دغت الامام الشافعي الى ان يقول

ولولا الشعرَ بالعلماء يزري
لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيدِ

فاستعمال الشعر في الغناء على الوجه الذي اتخذوه ، وجعله آلةً للاستجداء ، افقد الشعراء مرتبتهم العاليـة ، وأنزلهم من المقام السامي الذي كان لهم عند العرب ، يوم كان

وأقف عند هذا الحدّ من باب الموازنة التي هي عماد التبويب ، وهو كما علمت الدرجة الثانية من درجات النقد ، واثقاً ان فيما رتبتهُ من أبواب الشعر ، وما ذكرته من طبقات الشعرآء بعد الموازنة ، فائدة للطالب ، وامثولة للمسترشد .

وفي هذا المقام لا بدَّ لي من كلمةٍ أقولها في الشعر العربي فهو لهذا العهد عهد انبعاث العلوم عندنا ، لم يزل بعيداً عن المقام السامي الذي كان عليه لعهد الجاهلية ، وعما هو عليهِ اليوم عند أمم الفرنجة ؛ وقد تكلم في ذلك بعض فلاسفة الفرنج المستشرقين ، فزعم انَّ الاسلام سبب ذلك ، اذ ورد في القرآن ما يحرض على ترك الشعر ، وقال مثل ذلك جماعة من كبار كتّاب العرب ، وردَّ عليهم جماعةٌ من أكابر العلمآء بحجج لا محل لسردها هنا ، ينفون ذلك ، على أن القول الذي لا يُختَلفُ فيه ، ان مقام الشاعر عند العرب هو دون مقام الكاتب والعالم ، منذ عهد بعيد ، وان من أعظم الأسباب التي قضت بذلك ، هو تهافت الشعرآء منذ إنغماس

*
* *

فغاضَ ماؤهُ الذي قد ظلَّ حيناً يقطرُ
وكانَ يحوي جوهراً بهِ الحياةُ تظهرُ
وليسَ مَن يدري بما أصابهُ أو يشعرُ
إياكمُ ولمسَهُ فانهُ منكسرُ

*
* *

كم من يدٍ محبوبةٍ تفعلُ ما لا يُشكرُ
تجرحُ قلبَ عاشقٍ بكلمةٍ تكدّرُ
فينثني وقلبُهُ من فعلها منفطرُ
قدذبلتْ زهرةُ حبّهِ فليسَ تنضرُ

*
* *

وهو لأعينِ الملا مثلَ سليمٍ يظهرُ
يشعرُ بالنزع وسرّاً عينهُ تستعبرُ
الجرحُ يا قوم عميقٌ ودقيقٌ فاحذروا
إياكمُ ولمسَهُ فانهُ ينفجرُ

بمعانٍ ولغًى مختلفاتْ لا يفيها وصفها الا مجيد

ينظمُ الشعرَ بلفظٍ عربي

والمثال الثاني قصيدة لاحد نوابغ شعراء الفرنسيس سوُلّي پرودوْم المشهور ، كان طلب اليَّ بعض الادباء ان أترجمها الى الشعر العربي ، فأجبت طلبه ، وقد كانت نشرتها مجلة أنيس الجليس في أحد أعداد سنتها الثامنة وعنوانها

« الإناءُ المكسور »

ان إناءَ الوردةِ الْ — تي بَرَتها الغيَرُ
لقد غدا منصدعاً — وصدعهُ لا يجبرُ
أصيبَ من مِروحة — بلكمة لا تذْكرُ
ففصمتهُ دونَ أنْ — تُحدِثَ صوتاً يُنذِرُ

***

وذلك الفصمُ وإن — قد خيلَ لا يؤثّرُ
عضَّ على البلورِ يف — ريهِ وليس يُنظرُ
ولم يزلْ على ازديا — دٍ كلَّ يومٍ ينشرُ
حتى استدار حولهُ — وحالهُ مُستترُ

قُمْ فعانقْ عرْسَكَ المكتئبه   فلقد أودى بها طولُ الشَّجَنْ
وتدارَكْ مهجةً ملتهبه   منكَ ذاقتْ كلَّ انواعِ المحن
وأسعِدَنْها ببلوغِ الأربِ

* * *

فحباها بنسيماتِ الصبّا   وأتاها نادماً عمّا مضى
وتدنّى خاشعاً منتحبا   يستميحُ العفوَ منها والرضى
بجاري دمعهِ المنسكبِ

* * *

عند هذا برزَ المولودُ في   حُلَلٍ تزري بأبهى سُندسِ
وببدعٍ سرُّهُ لم يختفِ   صُبِغَتْ حتى غدت كالأَطلسِ
بضياءِ الشمسِ أُمِّ العجَبِ

وغدا يبسمُ عن نَوْرٍ بدا   مثلَ دُرٍّ فُتَّ فيهِ الذهبُ
مذ رآهُ بلبلُ الحيّ شدا   بأغانٍ ما شداها مُطربُ
فجَلا من غُمَّةِ المكتئبِ

ولُهنا عمَّ جميعَ الكائناتْ   فدعتْ للشمسِ بالعمرِ المديد

عندَ هذا برزتْ اترابُها والدُّجى تخبرُ عن أسرارِها
سبعةٌ قد شوهدتْ أسرابُها من بناتِ الشمسِ مع أقمارِها
وفريقٌ من ذواتِ الذَّنَبِ

دُرْنَ حول الأمّ لكنْ بانكسارْ قلنَ يا أُمّاهُ ما هذ المصابْ
أُختنا الارضُ عليها الجوُّ جار فانصحيهِ وانذريهِ بالعقاب
وأسعفيها ببلوغِ الأَربِ

* * *

فاستوتْ ذاتُ الجمالِ المُسفرِ فوقَ عرشِ النورِ في برجِ الحمَلْ
ثمَّ خطّتْ بالشعاعِ الأنورِ للّتي قد سئمتْ طولَ الحبَلْ
أنْ ضعي الطفْلَ قُبَيْلَ العطَبِ

واعلمي أنَّ التردّي بالسَّخَطْ صفةٌ يُرغَبُ عنها في الحسانْ
وهي عند الكلِّ عيبٌ وشطَطْ ليسَ في الطاعةِ للبعلِ هوانْ
وهيَ زَيْنٌ لذواتِ الحسَبِ

ثمَّ قالتْ أيُّها الجوُّ الجهولْ أنتَ بالهجرانِ ايضاً مُسرفُ
فقويٌّ النوعِ مطْواعٌ حمول للنّسا إذ هُنَّ طبعاً أضعفْ
ذاكَ فضلاً عن حقوقِ النسبِ

والصبي ما زالَ لي نعمَ الرفيقْ ‏ وجمالي زائدٌ عاماً فعامْ
وعفافي منهُ بالحبِّ خليق ‏ لو على عهدِ الوفا حقاً أقام
أو وعى ما سنَّ شرعُ الادبِ

وفؤادي ما لهُ غيرُ الأنينْ ‏ كلما أومضَ برقٌ من بعيدْ
وعيوني يُطلقُ الدمعَ السخين ‏ بعضُها والبعضُ يجري كالجليد
لدواعي حزَنٍ أو طرَبِ

وأنا أحملُ منهُ ذي الفعالْ ‏ برضًى شأنَ كرامِ الانفسِ
ولئن خالفَ في هذا الدَّلال ‏ ماقضى شرعُ الغرامِ الأقدسِ
باحتكام الغيدِ عندَ النُّجُبِ

لم أبحْ يوماً بتبريحِ هواهْ ‏ لا ولم أشكو الضنى الاَّ اليَه
وهو ما زالَ مجدًّا في جفاه ‏ حاسباً أنَّ حياتي في يديه
ساءَ ما ظنَّ وربِّ الغلَبِ

ثمَّ صاحت بلغَ السيلُ الزُّبى ‏ وغدتْ ترجفُ من زلزالِها
وبدت ثتراً على تلكَ الرُّبى ‏ تقذفُ النيرانَ من أجبالِها
فهيَ تجري مثلَ جريِ السُّحُبِ

⁂

قالَ هذا الطلقُ زورٌ ولذا أرشقُ الحبلى بثلجٍ وبَرَدْ
فيعوقُ الوضعَ منها واذا ما أصرَّتْ هلكتْ قبلَ الولد
قتلُ مَن يقتُلُ شرعُ الكتبِ

قالتِ الأمُّ الى كم تفتري أيُّها الظالمُ والحقُّ صريحْ
وبدتْ تروي صحيحَ الخبرِ بلسانٍ ينطقُ القولَ الفصيح
معربٍ عن أصلِ هذا اللَّجبِ

حدَّثتْ قد كنتُ من عهدٍ عهيدْ طفلةً أسرحُ حولَ الوالده
ظاهري كالقلبِ في وقدٍ شديد جذوةٌ من قبل أُلفى جامده
كُرَةٌ تَسبحُ بين الشُّهُبِ

فتصبَّانيَ ذا الجوُّ الكَنُود وبأحكامِ الهوى جارَ عليّ
فهوَ طوراً نافرٌ عني شَرُود وهوَ طوراً هائمٌ يصبو إليّ
وهوَ أحياناً شديدُ الغضبِ

منهُ لي بعلٌ كثيرُ النَّزَقِ سيّئُ الخلْقِ شديدُ الفرعنه
ولهُ منّيَ ذاتُ المَلَقِ تلدُ الغرّانَ في كلِّ سنه
مرضعٌ لم تشكُ مضَّ النصبِ

ذاكَ او يقربُ منهُ ما رواهْ عنكمُ التأريخُ في فنّ القريض
قدجريتمْ كلَّ شوطٍ فيمداهْ ولكم في نظمهِ جاهٌ عريض
من نسيبٍ او مديحٍ كَذِبِ

وعن التنقيبِ اعرضتم سوى ما أتى من مثَلٍ أو قافيَه
وعظيمَ الكونِ مع ماقد حوى من أعاجيبِ شؤونٍ خافيَه
لم يكن فيهِ لكم من سببِ

فكفى التشبيبُ والفخرُ المملّ ودعاوٍ عابها اهلُ الحلومْ
واسمحوا أن يقتدي هذا المقِلّ ببنى الافرنجِ أربابِ العلومْ
واسمعوا ما قالهُ في حلبِ

* * *

عزَّ بين الارضِ والجوّ الوئام لاختلافِ الرأيِ في وضعِ الربيعْ
حين رامت امهُ قبلَ التمام وضعهُ اذ جاءها الطلقُ السريع
فبدا في الجوّ فرطُ الصخبِ

زعمَ الوالدُ أنّ الأمَّ قد مسّها العجزُ على مرّ السنينْ
ولفقدِ الصبرِ منها والرَّشَد قدسعت عمداً باسقاطِ الجنين
فقضى حالاً بشجبِ المذنبِ

« ميلادُ الربيع »

أنتَ مَنْ يا مَن على تلكَ الدِّمَنْ   يذرفُ الدمعَ ويستبكي الطلولْ
كم تناديها ولو أصغتْ لِمَنْ   جاءَها مستنطقاً كانت تقولْ
عدِّ عن جهلِكَ يا هذا الغبي

كُنْ سواراً اوقرَيطاً اوجريرْ   او زُهَيراً او إياساً او هلال
او أبا النشناشِ والجمعَ الغفيرْ   من ملوكِ الشعرِ أربابِ المقال
كلُّكم يفعلُ أفعالَ صبي

تندبونَ الربعَ او بيتَ الشَّعَرْ   او خيالاً زارَ ليلاً ورَحلْ
او حصاناً او بعيراً قد نفَرْ   تضعونَ الدرَّ في عنقِ الجملْ
وخسيسَ التربِ فوقَ الذهبِ

منذُ ألفي سنةٍ بل ضعفِها   دأبكم ترديدَ هذا النَّغَمِ
تلك حالٌ حسبنُا في وصفِها   حالُ قومٍ سلكوا في الظُّلمِ
وأضاعوا وقتهم في اللعِبِ

يكون منبهاً لخواطر شعرآءنا الألباء الى احتذاء مثاله ، وابراز الشعر العربي في حلة من الحضارة العصرية تتجلى صورة الحسن بين رونقها وجماله . (السنة الثانية من الضياء)

. . . .

رأوكِ للحسنِ معبوداً وما وهموا

فالحسنُ معبودُ عشّاقٍ وزهّادِ

ويدخل في هذا الباب ايضاً ، وصف الشؤون الطبيعية ، والتخييل الفلسفي ، مما لم يطرقهُ العرب ، او انهم طرقوا الفلسفة ولم يمزجوها بشيء من التخييل ، فلم يكن لما نظموه من ذلك ، حظ سائر ابواب الشعر في النفوس ، بل كانت أشبه بألفيـة ابن مالك ، أي علماً منظوماً شعراً ، واليك مثالين من الطريقة الانيقة التي يجدر بشعراءِ العصر أن لا يتهاونوا بها :

فالمثال الاوّل الآتي هو موشح من نظم هذا العاجز نشر في مجلة الضياءِ[1] وهذا عنوانه :

---

(١) قالت بعد كلام . . وردنا من صديقنا (مؤلف هذا الكتاب) الموشح الاتي في معنى ميلاد الربيع سلك فيه طريقة الشعر الافرنجي في وصف الشؤون الطبيعية ، واودعه من الاشارات اللطيفة والتخيلات المبتكرة ما لم تجرِ عليه قافية عربية ، وفي مأمولنا ان

يحجّبُ البعدُ سيماها فان قرُبتْ
صدّتْ دلالاً فزادت غلّةَ الصادي
يسارقُ الطرفُ عينَ الشمسِ منظرها
فالشمسُ من دونها حلّتْ بمِرصادِ
حتى اذا هجعتْ في ليلها ظفرتْ
منها العيونُ بلمحِ الميسمِ البادي
فنبّئينا رعاكِ اللهُ جارتَنا
بل أنتِ سوّغَ لنا من عهدِ ميلادِ
قد انقطعنا فما أن بيننا صلةٌ
ولا سبيلٌ لملّاحٍ ولا حادِ
ولم يكنْ بيننا سدٌّ وقد ضربتْ
أيدي الفضا دونَ لقيانا بأسدادِ
ما أن ينالكمُ للبرقِ منطلقٌ
ولا يقرّبُ منكم سيرُ منطادِ
وانما رُسلنا الانوارُ حاكيةً
نارَ الصليبِ تبدّتْ فوقَ أنجادِ

اذا أبصرتهُ الشمسُ بعد احتجابها
لهُ ساعةً أبصرتَهُ يتمزَّقُ

وكقول علاَّمة العصر غير مدافَع ، وقطب دائرتي المنثور والمنظوم غير منازَع ، الاستاذ الجليل بل الأخ الحبيب الأَبرّ ، الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب الضيآء الأَغرّ (١) يصف الزُّهرة :

قفْ بي نحيّي رُباها أيها الحادي
فتلكَ أبياتُها في عدوةِ الوادي
قد خيَّمتْ باللّوى الغربيّ ضاربةً
عليهِ أُطنابَهـا من غيرِ أوتادِ
مقيمةٌ لم تُقِمْ الاَّ على سفرٍ
ما ينقضي بينَ تأويبٍ وإسآدِ
تمشي الهوينا كما مرَّ النسيمُ ضحًى
في هودجٍ من شعاعِ النورِ وقّادِ

(١) كُتب هذا قبل وفاته وا أسفاه عليه .

ذهنه عن الارضيات ، وشغف بمحاسن السماويات ، فلا يهتز لهزّ الاعوجية ، ولا يتحمس لصليل الهنديّة ، ولا يترنح لرنين القدح وطنين الكؤوس ، ولا تثنيه المنح فيرضى بعطر بعد عروس ، ولا يتبجح بالمناصب وينتفخ بالألقاب ، ولا تتصباهُ أو تُلهيه ذوات الحجاب ؛ على انه لا يستحيل حسن وصف الجويّات او اجادة تشبيهها بعض الاحيان على الشاعر المجيد ، وان لم يصدق عليه كل هذا الوصف ، كقول السري في البَرَد :

يومٌ خلعتُ بهِ عذاري فعريتُ من حللِ الوقارِ
فهواؤهُ سَكِبُ الردا ءِ وغيمهُ جافي الازارِ
يبكي فيجمدُ دمعُهُ والبرقُ يكحلهُ بنارِ

وكقول الكندي يصف الندى على البحر :

كأنَّ الندى في البحرِ بحرانِ مائعٌ
على مائعٍ هذا على ذاكَ مطبقُ
فهذا لُجَيْنٌ سابقٌ مترقرقٌ
وذاكَ لُجَيْنٌ في السمآءِ معلّقُ

ناقصي الصبر عند البحث ، قصيري النظر في مواضع الخطاء بل يرون الصواب محل الغلط ، فاقدي الذوق في طعم الكلام ، ضعيفي الحجة عند الجدال ، فاسدي الأحكام في القضآء ، وما ذالك الا لضعف ميلهم الفطري الى ما قصدوا اليه .

وأما قصيدة الأرّجاني فقد أغرب فيها واعجب ، ولم أجد لها بين كل ما قرأتهُ في اللغة العربية مثيلاً ، وانا لم أذكر منها الا القليل ، والناقد يرى ان الشاعر لم يأتِ على تفصيل تلك الحفلة أو الموكب السطاني اتفاقاً ، ولا جرّتهُ الى ذلك القافية ، بل قصد لهُ قصداً وتعمَّدهُ ، واستنزف فيه مآء قريحته ، فلو ترجمت الى اليونانية ترجمةً حسنةً وأضيفت الى الالياذة ، لكانت تُعَدُّ من أحسن ما نظم هوميروس ، ولو رام مصور بارع تصوير ما فصّل فيها ، لقضى في ذلك سنينَ طوالاً ، ولا يفقهُ ذلك الا أهل العلم الراسخ .

والوصف كما تعلم غرضٌ بعيد وبابٌ واسعٌ ، فمنهُ وصف الحوادث الجويّة وهو الغاية التي لا ينالها الاّ مَن صرف

كان يتخذ وصف الواقعة ، وسيلة الى المدح والشكر ، واما المتنبي ، فكان يتخذ المدح ويجعله وسيلةً الى وصف الحروب وذكر أخلاق البشر ومعرفته بهما ، لان ذلك كان مطمح ابصاره ، في ليلهِ ونهاره ، ومقاماته واسفاره ، ومعلوم ان الانسان لا يبرع في فنٍ أو علم ، حتى يكون ميله الغريزي اليه ، فانك اذا تفقدت احوال مشاهير الكتّاب والشعرآء ، تجد أنَّهم كانوا مولعين بكلام من تقدمهم من الفصحآء والبلغآء ، ومثل ذلك تجد البارعين من المصورين ، لم يبلغوا ما بلغوهُ من الاتقان ، الاّ بعد ان أطالوا النظر الى تصاوير من تقدمهم من اساتذة هذا الفن ، ومثلهم علمآء النجوم ، فانهم لم يصلوا الى معرفة مواقعها وسيرها واكتشاف العدد العظيم منها ، الا بعد طويل الرصد وجزيل الصبر ، وشديد البحث ، ولا يكون ذلك من هؤلآء كلهم في هذه الفنون وغيرها ، الا عن ميلٍ غريزيّ ، وهوًى فطريّ ، واذا استقريت احوال المقلّدين المقصرين من طلاّب العلوم والفنون جميعاً ، تجد العكس ، فتراهم قليلي الجَلَد على القرآءة

احوال الرفاهية والنعيم ، وتقلبه على مهادهما ، وطول مراقبته نظائر ما كان يصف من المسكن والفرش ، ولا بدع فهو من نسل الخليفة المأمون .

أما المتنبي فلم تكن تغنيهِ القصور والمباني ، او تشغل فكره عن الغرض الوحيد الذي ظل يرمي اليه حياته كلها ، وهو المجد وبلوغ المناصب العالية في الدول، فرأيناه مقصراً في هذا الباب ، وهو فيه دون البحتري ، وبعكس ذلك في وصف المواقع الحربية ، فانه كان المجلّي المبرّز على جميع الشعراء ، ولعل السبب في هذا ، انه كان يرى بلوغ امانيه ، من وراء الحروب ، فكان يتفنن في وصف وقائعها بما كانت توحيه اليه افكاره السامية فتنفثها قريحتهُ السيالة ، فتبرز في كل معنى بديع وشكل انيق ؛ ثم يأتي بعدهُ ابن هاني وهو متنبي الغرب ، حتى ليكاد يحاكيه في جمال الوصف ، ودقة التشبيه ، وكثرة المعاني ، وغزارة المادة ، وقوة العارضة .

وأما البحتري فهو دونهما في ذلك ، كما يُتحقق من موازنة قصيدته مع قصيدتيهما ، فان الناقد يرى ان البحتري ،

والاروقة وغيرها ، مما يحار فيه الفكر وصفاً وتشبيهاً .

أما البحتري فقد وصف وصفاً اجمالياً فلم يذكر مدخل القصر ولا ما حولَهُ ولا أنديتـهُ ولا أروقتهُ ولا مفروشهُ ولا غير ذلك من تحفه ولا عجائبه ، مما ينضب معه ماء القرائح ، ويجف عنده معين الاذهان . فذكر حيطانه الزجاجية ورخامَهُ وذهب سقوفه فقط ، ولو أجهد قريحته وعلم ما وراء الوصف المفصل وتفصيل مشهوده من الفائدة والجمال . لما اقتصر على ما قال ، فاما ان يكون اقتصارهُ عجزاً عن بلوغ شأو الموصوف ، أو جهـلاً بمزية دقيق الوصف وحسن التفصيل ، وفي الحالين يُعدّ مقصّراً ، بيد ان قصوره ذاك ، كان في وصف المصنوعات ، لانك اذا نظرت الى وصفه البركة ، رأيته وصفاً بالغاً غاية البلاغة والبراعة ، فهو في وصف الطبيعي ، أقدر منه في وصف الصناعي ، وذلك لقرب عهده من البداوة ورسوخ أحوالها في أخلاقه ، بخلاف المأموني فانه أجاد في الوصف بل كأَنه كان يود الاطالة في ذلك لولا خشية املال الممدوح المهنّأ بالدار ، وذلك لاعتياده

رفعوا على قَصَباتهم قصصاً
ويناشدونَ اللّهَ ان تقرا

. . . .

وقد أطلت هنا من ايراد الشواهد ، لان حسن الوصف من أدق الامور وأصعبها على الشاعر ، فاذا وازنت بين القصائد الثلاث التي وُصِفَتْ بها القصور ، وجدت المأموني قد أبر على البحتري والمتنبي بدقة الوصف ، وبراعة التشبيه ، وحسن التنسيق ، وإحكام الترتيب ، فذكر أولاً فِناءَ الدار ، ثم بهوها ثم صحنها ثم حيطانها وما طُليت به من الشيد المفضّض وجُصّصت به من القرميد المذهب ، ثم ارضها المفروشة بالفسيفساء التي تحاكي حبوب المسك والعنبر ، ثم الاساطين المرفوعة على صخور محدَّبة ثم أندية القصر — ولم يقل غُرَفَهُ أو مخادعه تعظيماً للقصر واجلالاً لصاحبه — ثم أتى على ذكر الفرش والستور والنقوش الى غير ذلك من وصف الابواب والخلجان والحدائق والرياض والمياه والسواري والبيوت والقباب والجامات والتماثيل

وتناظرَ الغلمانِ راكضةً
للخيلِ تابعةً لهُ الاثرا
المحكمينَ عقود اقبية
فيها يرونَكَ اوجهاً زُهرا
وكأنما أضحتْ قلانسهم
من عكس ضوء خدودهم حمرا

. . . . . .

وبنو الرجآء بكلّ ملتفتٍ
منهم تشاهدَ عسكراً بحرا
وذوو العمائم في مناصبهم
والتركُ ترمقُ نحوهم شزرا
ميلاً قلانسُهُم كأنَّهم
قِطعُ الرياضِ تكللت زهرا

. . . . . .

وتصايحُ المتظلّمين حكى
لفظَ القطا أوسعتها زجرا

وخلالَ أطنابِ الخيام ترى
رشقَ الرُماة سِهامَها تترى

. . . .

والسوقُ تبصرُ من عجائبها
في كل مرمى نظرةٍ مِصرا

. . . .

حتى اذا ما الصبحُ لاحَ وقد
نُشِرَتْ لنا راياتهُ نشرا
وسمعتَ صيحاتِ الاذانِ من الـ
جنباتِ تنعرُ بالدجى نعرا
وتخالُ أصواتَ الطبول اذا
أصغيتَ إنْ ظُهراً وإنْ عصرا
رعداً تقطعَ بالعروضِ فمَا
تلقى لهُ زحفاً ولا كسرا
فنفوا بقايا غمضِهم وقضوا
فرضَ الصلاةِ واخلصوا السرّا

حيث التفتَّ ملئتَ من فرَقٍ
عيناً ومن فرحٍ بهم صدرا
ورأيت أنديةً وأغنيـةً
فيها الصهيلُ يجاوبُ الهدرا
وترى على الابوابِ مقربةً
مطويَّةً اقرابها ضُمْرا
مشمولةً أمناً ومن كرمٍ
قد حذَّرت آذانَها حذرا
ومراكزَ الارماحِ قد نشرتْ
كفُّ الصبا عذباتها الحمرا
وعلى جيادِ الخيلِ اغلمةٌ
غرٌّ تصرّفُ تحتها غرّا
من ضاربٍ كرةً يُنزّقُها
في ملعبٍ أو رائضٍ مهرا
أو مردفٍ فهداً ليقنصهَ
أدمَ الفلا أو ممسكٍ صقرا

بحرٌ يموجُ اذا رآهُ فتًى
أقسمتُ لم يرَ قبلهُ بحرا
فِرَقٌ تعود وتبتدي فِرَقٌ
كالبحرِ يُبدي المدَّ والجزرا
وحكى القبابُ بها الحبابَ ضحًى
يلمعنَ من صغرى ومن كبرى

. . . .

وانبثَّ يشبعُ عينَهُ نظراً
منهُ ويخبرُ أمرهُ خبرْا
فترى الورى أمماً كأنهمُ
حشروا ليومِ حسابهم حشْرا
وحكتْ خيامُ الجندِ نازلةً
صدفاً يضمُّ بطونُها درّا
وتجيلُ طرفاً لا ترى خللاً
مما يسدَّ القُطر والقَطرا

وكأنّ الستورَ قد نشرَ الطّـا
وُوسُ منها في كلّ بابٍ جناحا
وكأنّ الجاماتِ فيها شموسٌ
أطلعتْها ذُرى القبابِ صباحا
والسواري مثلُ السواعدِ كبتٌ
تحتهـا من أساسها أقداحا
وبيوتٌ كأنهنّ قلاعٌ
مزمعاتٌ للنيّراتِ نطاحا
ورواقٌ كأنما بَسطتْ فيـ
ـهِ دعاءً آيُ الاساطينِ راحا
وجنانٌ لو كنتُ في جنةِ الفر
دوسِ لم أبغِ غيرَهنّ اقتراحا

وقال القاضي الارّجاني :

أقسمتُ لا قصرَ الزمامَ يدي
حتى ترى همَذانَ والقصرا

. . . .

وثراها من عنبرٍ شيبَ بالمسـ
ـكِ فان هبّتِ الصّبا فيهِ فاحا
مقنعاتٌ فيها الاساطينُ من فوْ
قِ صخورٍ قد انبطحنَ انبطاحا
كلُّ نادٍ منها قد اُتّشح الفر
شُ بثوبِ الربيع فيـهِ اُتّشاحا
وأرى بينَ كلِّ نحيينِ كالرو
ضِ خليجاً منَ البساطِ مساحا
وسقتْ ماآؤهُ حدائقَ غربيـ
ـهِ الى أن غدتْ بهِ ضحضاحا
صبغةٌ من دمِ القلوبِ فمن أبْ
صَرَهُ اُهتزّ صبوةً وارتيـاحا
شـابَهَ النقشَ فرشُها مثلما شا
بَهَ ولدانُها دماهـا الصباحا
وكأنَّ الابوابَ صحبٌ تلاقيـ
نَ اُنغلاقاً ثمَّ افترقنَ انفتاحا

لو كنتَ ساءلتهم في اليمِّ ما عرَفوا
سفعَ السفائنِ من غيرِ الملاحيدِ

وقال المأموني يصف قصراً بناهُ الصاحب :

فهنيئاً منها بدارٍ حوتْ منْ
كَ جبالاً من الحلومِ رجاحا
ذاتِ صدرٍ كرحبِ صدركَ قد زا
دَ على ظنِّ آمليكَ انفساحا
يغرسُ الصيدُ في ذُراها من التقْ
بيلِ غرساً فيجتنيهِ نجاحا
بفِناءٍ نطيلُ فيهِ خُطى اللحْ
ظِ ونلقى للفكر فيهِ انسراحا
بهوُها يملأُ العيونَ بهاءً
صحنُها يملأُ الصدورَ انشراحا
شِيدُها فضةٌ وقرمدُها تبْ
رٌ قد امتيحَ من نداكَ امتياحا

توَّجتَ منها القنا تيجانَ ملحمة
من كل محلولِ سلكِ النظمِ معقودِ
كأنها في الذرى سحقٌ مُكمَّمةٌ
من كل مخضودِ أعلى الضلع منضودِ
سودِ الغدائرِ في بيضِ الأسنةِ في
حمرِ الانابيبِ في ردعٍ وتجسيدِ
أشهدتَهم كلَّ فضفاضِ القميصِ ضحًى
في كلِّ سرجٍ تحلَّى ظهرَ قيدودِ
كأنَّ أرماحَهم تتلو اذا هزجتْ
زبورَ داود في محرابِ داودِ

. . . .

وشاغبوا اليمَّ ألفيْ حجةٍ كَمَلاً
وهمْ فوارسُ قارياَّتِهِ السودِ
فاليومَ قد طَمَستْ فيهِ مسالِكُهم
من كلِّ لاحبِ نهجِ الفلكِ مقصودِ

قضيتَ نحبَ العواتي من بطارقهم
وللدماسق يومٌ جدٌّ مشهودِ
ذمّوا قناكَ وقد ثارت أسنّتُها
فما تركنَ وريداً غيرَ مورودِ
طعنٌ يُكوِّرُ هذا في فريسةِ ذا
كأنَّ في كلِّ شلوٍ بطنَ ملحودِ
حويتَ اسلابَهم من كلّ ذي شَطَبٍ
ماضٍ ومطَّردِ الكعبينِ أملودِ
وكلِّ درعٍ دلاصِ المتنِ سابغةٍ
تُطوى على كل ضافي النسجِ مورودِ
لم يعلموا أنَّ ذاكَ العزمَ منصلتٌ
وأنَّ تلك المنايا بالمراصيدِ
حتى أتوكَ على الأقتابِ من بُهُمٍ
خزرِ العيونِ ومن شوسٍ مزاويدِ
وفوقَ كلِّ قتودٍ بزُّ مُستلَبٍ
وفوقَ كلِّ قناةٍ رأسُ صنديدِ

اذا توافقتِ الضرباتُ صاعدةً
توافقتْ قُلَلٌ في الجوِّ تصطدمُ
وأسلمَ ابنُ شُمُشقيقٍ أَلِيَّتَهُ
ألاَّ انثنى فهو ينأى وهي تبتسمُ
لا يأملُ النفسَ الأقصى لمهجتهِ
فيَسرِقُ النفَسَ الأدنى ويغتنمُ
تردُّ عنهُ قنا الفُرسانِ سابغةٌ
صوبُ الأسنَّةِ في أثنآئها ديَمُ
تخُطُّ فيها العوالي ليسَ تنفذُها
كأنَّ كلَّ سنانٍ فوقَها قَلَمُ

وقال ابن هاني يصف وقعة حربٍ للمعز مع الروم :

قد حاكمتهُ ملوكُ الرومِ في لَجَبٍ
وكان للهِ حكمٌ غيرَ مردودِ
اذ لا ترى هبرزياً غيرَ منعفرٍ
منهمْ ولا جاثليقاً غيرَ مصفودِ

والنقعُ يأخذُ حرّاناً وبقعتَها
والشمسُ تسفرُ أحياناً وتلتثمُ
سحبٌ تمرُّ بحصنِ الران ممسكةٌ
وما بها البخلُ لولا أنها نقِمُ
جيشٌ كأنّكَ في أرضٍ تطاولهُ
فالارضُ لاأَمَمٌ والجيشُ لاأَمَمُ
اذا مضى علَمٌ منها بدا علَمٌ
وان مضى علَمٌ منهُ بدا علَمُ

. . . .

صدمتهم بخميسٍ أنتَ غرّتهُ
وسمهريّتهُ في وجههِ غمَمُ
فكان أثبتُ ما فيهم جسومَهُمُ
يسقطنَ حولكَ والارواحُ تنهزمُ
والأعوجيّةُ ملءُ الطرقِ خلفَهُمُ
والمشرفيّةُ ملءُ اليومِ فوقَهُمُ

أُيِّدتَ بالنصرِ الوشيكِ وأُتبعوا
في ساعةِ الهيجآء بالخذلانِ
راموا النجاةَ وكيفَ تنجو عصبةٌ
مطلوبةٌ باللهِ والسلطانِ
جاءتكَ أسرى في الحديدِ أذلَّةً
مجموعةَ الأيدي الى الأذقانِ
فأفككْ جوامعَهم بمنِّكَ إنها
سمرتْ على أيدي ندًى وطعانِ

وقال المتنبي يهنئ كافوراً بقصرٍ بناه :

مستقلٌّ لكَ الديار ولو كا
نَ نجوماً آجرُّ هذا البنآء
ولو أنَّ الذي يخرُّ من الأمـ
واهِ فيها من فضةٍ بيضآء

وقال يصف وقعة حربٍ جرت لسيف الدولة مع البطريق :

فلم تتمَّ سروجٌ فتحَ ناظرها
الاَّ وجيشكَ في جفنيهِ مزدحمُ

حُبُكُ الغمامِ رُصِفنَ بين منمَّرٍ
ومسيَّرٍ ومقاربٍ ومشاكلِ
لبستْ من الذهبِ الصقيلِ سقوفهُ
نوراً يُضيءُ على الظلامِ الحافلِ

وقال يصف وقعةً :

ضاقتْ بأسعدَ أرضُها لمَّا رمى
ساحاتِها بالخيلِ والفرسانِ
بفوارسٍ مثلِ الصقورِ وضمَّرٍ
مجدولةٍ كَكواسرِ العقبانِ
لما رأَوْا رَهَجَ الكتائبِ ساطعاً
قالوا الأمانَ ولاتَ حينَ أمانِ
يتألونَ من حدِّ الحديدِ وخلفهُم
شُعَلُ الظّبى وشواجرُ المرّانِ
يومٌ من الأيامِ طالَ عليهمُ
فكأنّهُ زمنٌ من الأزمانِ

يعمنَ فيها بأوساطٍ مجنَّحةٍ
كالطيرِ تنقضُّ في جوٍّ خوافيها
لهنَّ صحنٌ رحيبٌ في أسافلها
اذا انحططنَ وبهوٌ في أعاليها
صورٌ الى صورةِ الدلفين يؤنسُها
منهُ انزواءٌ بعينيهِ يوازيها

وقال يصف القصر الكامل الذي بناهُ المعتز بالله :

ذُعِرَ الحَمامُ وقد تغنَّى فوقَهُ
من منظرٍ خطرِ المزلَّةِ هائلِ
رُفعتْ لمخترقِ الرياحِ سموكُهُ
وزهتْ عجائبُ حسنهِ المتخايلِ
وكأنَّ حيطانَ الزجاجِ بجوِّهِ
لججٌ يمجنَ على جنوبِ سواحلِ
وكأنَّ تفويفَ الرخامِ اذا التقى
تأليفُهُ بالمنظرِ المتقابلِ

بحسبها أنها في فضلِ رتبتها
تعدُّ واحدةً والبحرُ ثانيها

. . . .

تنصبُّ فيها وفودُ الماءِ معجلةً
كالخيلِ خارجةً من حبلِ مجريها
كأنما الفضَّة البيضاء سائلةً
من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا ابدت لها حبكاً
مثلَ الجواشنِ مصقولاً حواشيها
فحاجبُ الشمسِ احياناً يضاحكها
وريّقُ الغيثِ أحياناً يباكيها
اذا النجوم تراءَتْ في جوانبها
ليلاً حسبتَ سماءً رُكّبتْ فيها
لا يبلغُ السمكُ المحصورُ غايتَها
لبعدِ ما بينَ قاصيها ودانيها

راسخة في الفضل وبراعة الانشآء ، ولكنَّهُ كان ذا حقد خائناً ، ولا تحصل لك ريبةٌ في القائل ، وما ذاك الاّ لانه التزم جادة الصدق واجتنب المغالاة ، فعلمنا من قوله أثر الحقيقة وقد نشرها لنا صدق النقد ، بعد أن غابت عنا الاعيان ، وطوتها عاديات الازمان .

ولولا الخشية من ملل القارئ ، لوازنتُ بين باقي الابيات التي أوردتها في هذا الفصل ، ولعل فيما ذكرته غنى.

الفصل الثالث عشر

في

موازنة الوصف

قال البحتري يصف بركةً بناها الخليفة المتوكل في روضة سماها المتوكليّة :

يا مَن رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنساتِ اذا لاحت مغانيها

انه عند العرب وبعدهم في الاسلام ، قد كان شرَّ اللحوم ، فلا وجه للمقابلة بين النفع الذي يحصل من خدمة العبد ، وبين لحم الخنزير ، وهو لحم محرَّم مضرٌّ ، ومن ذلك كله ينتج ، ان الفائدة المقصودة بالهجاء ، لا تحصل الا بالتزام الحقائق على قدر الامكان ، واجتناب الغلوّ والاغراق .

ومثل ذلك اذا وازنتَ بين قولي في ابي بكر الخوارزمي ، وقول ابي الحسن الرقاقي ، تجد في بيتيَّ من اللفظ الفظّ البالغ غاية الاحتقار والشتم ، ما يجعلك تنفر من قائله وتظن فيهما غرض الانتقام ونتيجة الحقد ، اذ الخوارزمي كان ذا حسنات كدنَ يذهبنَ سيئاته ، فلا يليق فيه مثل هذا الهجاء ، بل يضيع به قصد الهاجي ويخطئ سهمه الغرض . وبالخلاف منه قول الرقاقي ، فانك ترى عليه حرمة الانصاف ، ومسحة النزاهة ، ورونق العدالة ، لانهُ ذكر محاسنهُ وعيوبه ، وهب انك لا تعلم شيئاً من أمر الخوارزمي ، فاذا ما أجلت النظر الصادق ، ووضعت القولين تحت مجهر النقد ، ظهر لك فضل هجاء الرقاقي ، وعلمت ان الخوارزمي كان حقاً ذا قدم

وأردنا انتقادهما ، لوجدناهما فاسدَي المعنى ، لان العبد وان كان من حيث الانسانية اقرب الى الحيوان من النبات ، بل هو المميَّز على سائر انواعه بالنطق وسعة الادراك ، الا ان المتنبي اراد المشاكلة بين اسمهِ وهو الزيتون ولونه ، وما بينه وبين الزعرور من النسبة في اللون والشكل ، وكلاهما من صنف النبات فقال :

سمُّوك زيتوناً وما أنصفوا لو أنصفوا سمُّوك زعرورا
فانّ في الزيتونِ نوراً يضِيْ وأنتَ لا زيتاً ولا نورا

فقد أوضح ما في الزيتون من النفع وهو الزيت والنور ، وكلاهما غير موجود في الزعرور ، وفي هذا المعنى اشارة الى ان ذاك العبد لا حسن له ، ولا رجاحة عقل فيه ، وبذلك تظهر صحة النسبة باللون بين العبد ، والزيتون ، والزعرور ، ثم وجه تفضيل الزيتون والزعرور ، لما فيه من الزيت والنور ، وخلوّ الزعرور منهما ، كخلوّ العبد من الحسن والذكاء .

أما النسبة بين الزيتون والخنزير ، فهي معدومة ، اذ لا نفع يرجى من الخنزير ، اللهمَّ الا بأكل لحمه ، وأنت تعلم

بأحاسن الشيم ، والمتحلين بمحاسن آداب الحضارة العصرية بل البشرية ، ليس هو القذف والسِّباب ، بل تنبيه الناس الى الصفات القبيحة المتصف بها المهجو ، وتصويرها لهم كما هي او بزيادة قليلة يُسامح فيها الشاعر او الكاتب او الخطيب ، ما لم يخرج به الغرض او حبُّ الانتقام والتشفّي ، الى المبالغة ، كأن يجمع في المهجوّ صفاتٍ ليست فيه ، فيخيب أمله ويخطئ سهمه ، اذ يكون حالهُ حال من اراد تصوير فرس قبيح فصوّرهُ حماراً وقال انظروا ما أقبح هذا الفرس ، فيقول الناس ما أشدَّ حمق هذا الرجل ، ينظر الحمار فيحسبه فرساً ؛ فيكون بهجائهِ ذاك ، قد دعا الناس الى هجاء نفسه ، لانه لم يصور المقصود منه ولا شبههُ ، فضلَّ الحقيقة وهي ضالةُ الجميع .

وهاك مثالاً آخر : لو فرضنا ان المتنبي هجا العبد المسمى زيتوناً بهذين البيتين :

سمُّوك زيتوناً وما أنصفوا   لو أنصفوا سمُّوك خنزيرا
فانَّ في الخنزيرِ نفعاً لنا   وأنت لا نفعاً ولا خيْرا

الكلام في معنى أو موضوع واحد ، مما تملّهُ الاسماع .

والتفنن أو بعبارة أخرى ، التنقُّل في الموضوعات المهجوَّة ، ضروري كما لا تجهل ذلك ، فلو فرضنا ان المهجو رجلٌ وكَلٌّ ، متعجرف ، قليل الخير ، يدعى كافوراً ، وسمعنا فيه أبيات المتنبي ، والعسقلاني ، والبحتري وغيرهم كابن الحجَّاج وابن سكره ، لحكمنا بعد النظر ، ان الشيخ العسقلاني قد برَّز على الجميع ، اذ انه صوَّر لنا في بيتين ، جلّ عيوب المهجو المستكرهة ، فلو كان القارئ مصوراً لما احتاج الى عناءٍ كثير في تصويرهِ هذا الرجل ، ولبرز لنا المهجو المصوَّر لفظاً ، مصوراً رسماً ، ولعاينَّا منه رجلاً متعجرفاً على وجهه ملامح الجهل والصلَف والوقاحة ، مادّاً يدهُ على صورة الآمر ، وهو جالس في صدر مخدع مزين بالفرش الثمين ، وقد أُرخيت السجوف على باب المخدع ، ووقف وراءَ الباب حاجب يمنع رجالاً يريدون الدخول .

وهذا التصوير لا يتمُّ في غير بيتي العسقلاني ، وقد تقرر أن المراد من الهجاء عند الادباء واهل الفضل المتجملين

النكات بهجوهِ ، وهذا مما يدلُّ على معرفته مزيتها ، فان كلامه في ابن كرّوس ، بالغ غاية النكاية وأقصى الاحتقار والاهانة ، وليس به شيءٌ من الفحش ، ومثله بيته في كافور .

وأنتَ تعلم انه قد يتفق للشاعر الخامل ان يأتي ببيتٍ بديع المعنى والتركيب ، الاَّ انه اذا استكدَّ قريحته بنظم قصيدة في أي معنى من المعاني ، ظهر تخلّفه عن الاجادة ، وتقصيرهُ عن مجاراة سواهُ من المُجيدين ، والحكم في هذا الموازنة ، على ما وازنتُ من الابيات ، وبين مَنْ ذكرت من الشعراء .

والذي يظهر للناقد مما ذُكر ، ان الشاعر الحمدوي ، قد تقصَّى في التهكّم والسخرية بابن حرب ، وقد جعل ذلك ديدناً له حتى بلغ غاية البراعة ، وجمع بل ابتكر كل ما يمكن ان يقال في هجاء الطيلسان ، اذ له أبيات كثيرة في ذلك ، ولكن من أمعن في البحث في سائر شعره ، لا يرى له مثل هذا النوع في شيءٍ غيرهِ ، وهو دليل على ان الرجل ، لم يكن متفنناً ، ولا بعيد النظر ، فهو كان ينام على ذكر الطيلسان ويستيقظ على ذلك ، ومن المعلوم ، ان تكرار

فمذ أصبحت أذنابنا وهي أرؤسٌ
غدونا بحمدِ اللهِ نمشي الى ورا

وقلتُ :

انَّ هذا الفتى المباهي بطهرِ الـ
نفسِ برهانهُ صريحٌ لدينا
بقَعٌ فوقَ ثوبهِ صارخاتٌ
انَّ آثارنا تدلُّ علينا

فاذا أردتُ الموازنة بين الشعرآء أصحاب هذه الابيات المتفرقات ، طال بي مجال القول الى ما أخاف معه ملل القارئ ، بَيْدَ أنك اذا نظرتَ نظر ناقدٍ بصير ، في جميع شعر البحتري ، لا تجد له من الهجآء اللطيف شيئاً مذكوراً ، ولعل الابيات التي ذكرتها لهُ هنا ، هي من ألطف ما قاله في هذا الباب ، وما هي في شيءٍ من الحسن ، وأما سائر أهاجيه ، فهي من الطبقة الرذلة .

أما المتنبي فخلا قصائدهِ في ضبَّة وكافور وابن كغيلغ ، كان اكثر أدباً من البحتري ، وأصون لساناً ، وكان يتعمد

طالَ تردادهُ الى الرفوِ حتى
لو بعثناهُ وحدهُ لتهدَّا

وله ايضاً :

طيلسانٌ لو كان لفظاً اذن ما
شكَّ خلقٌ في انَّهُ بهتانُ
فهو كالطورِ اذ تجلَّى له اللَّـ
ـهُ فدكَّتْ قواهُ والاركانُ
كم رفوناهُ اذ تمزَّقَ حتى
بقيَ الرفوُ وانقضى الطيلسانُ

ولبعضهم :

ولي ثيابٌ رثاثُ لستُ أغسلُها
أخافُ أعصرُها تجري مع المآء

ولفقيد اللغة علامة العصر الشيخ ابراهيم اليازجي :

تعجَّبَ قومٌ من تأخّرِ حالنا
ولا عجبٌ من حالنا ان تأخَّرا

إنْ كنتَ تحكمُ بالنجومُ فربما
أما بشرع محمدٍ من أين لكْ

ومن ذلك قول بعضهم في رجل يدعي الصلاح :

خرجنا لنستسقي بيمنِ دعآئه
وقد كادَ هدبُ الغيم ان يبلغَ الارضا
فلما ابتدا يدعو تقشّعت السما
فما تمَّ الآَّ والغمامُ قد انفضَّا

ولاسمعيل الحمدوني :

يا أُبنَ حربٍ كسوتني طيلساناً
أنحلتهُ الازمانُ وهو سقيمُ
فاذا ما رَفوتهُ قال سبحا
نكَ محيي العظامِ وهي رميمُ

ولهُ :

يا أُبن حربٍ كسوتني طيلساناً
ملَّ من صحبةِ الزمانِ فصدّا

أقام على الاهواز خمسين ليلةً
يُدبّرُ أمرَ الملكِ حتى تدمَّرا

ولبعضهم :

ولو أني بُليتُ بهاشميٍّ خؤولتُهُ بنو عبد المَدانِ
لهانَ عليَّ ما القى ولكن تعالَوا فانظروا بمن ابتلاني

ولزنكي ابن آق سنقر :

قامَ الحمامُ الى البازي يهدّدهُ
واستيقظتْ لأُسودِ البرّ أضبُعهُ

ولبعضهم :

خلتِ الرقاعُ من الرخا خِ ففرْزنَتْ فيها البيادقْ

على ان ما ذكرتهُ ليس فيهِ شيءٌ من النكات المضحكة .
وهو أصعب ما في هذا الباب وأنكى ، ولم أقف في جميع ما فتشته من الكتب على أزيد مما يأتي ، فمن ذلك قول أبي الطيب الطبري :

يا ابنَ المرخَّم صرت فينا قاضياً
خَرِفَ الزمانُ تراهُ أم جُنَّ الفلكْ

يا صنماً يعبـدُهُ شعري
بلا ثوابٍ وبلا أجرِ
انطقْ بلفظٍ قبل أن يحسبوا
أنكَ من طينٍ وآجرِّ

ولهبة الله بن الفضل القطان :

نَسبٌ الى العبّاسِ ليس شبيهَهُ
في الضعفِ غيرُ الباقلآءِ الاخضرِ

ولأبي شجاع الروزراوي في وزيرٍ عزل عن الوزارة :

تولاَّها وليس لهُ عدوٌّ   وخلاّها وليس لهُ صديق

ولأبي الحسن الرقاقي في الخوارزمي :

مات ابو بكرٍ وكان امرأً   أدهمَ في آدابهِ الغُرِّ
ولم يكنْ حرًّا ولكنَّهُ   كان أميرَ المنطقِ الحرِّ

وقلتُ فيه لاجل الموازنة :

مات أبو بكرٍ ويا طالما   قد ملأ الاسماع أخفاشا
وكان ذا لؤمٍ وذا خسَّةٍ   وكان مثلَ الصلّ نهّاشا

ولمحمد بن بقية :

وقال ابن سكَّرة :

تهتَ علينا ولستَ فينا ... وليَّ عهدٍ ولا خليفه
فتِهْ وزدْ ما عليَّ جارٍ ... يُقطعُ عني ولا وظيفه
ولا تقلْ ليس فيَّ عيبٌ ... قد تَقْذَفُ الحرَّةُ العفيفه
والشعرُ نارٌ بلا دُخانٍ ... وللقوافي رقىً لطيفه
كم من ثقيلِ المحلّ سامٍ ... هوَتْ بهِ أحرفٌ خفيفه
لو هُجِيَ المسكُ وهو أهلٌ ... لكلّ مدحٍ لصار جيفه

وقال بعضهم في قاضٍ :

يكرهُ أن يشربَ من فضَّةٍ ... بل يشربُ الفضةَ ان نالها

وقال ابن الشخباء العسقلاني يهجو وزيراً :

حجابٌ وإعجابٌ وفرطُ تصلُّفٍ
ومدٌّ يدٍ نحو العلا بتكلُّفِ
ولو كانَ هذا من وراءِ كفايةٍ
عذرنا ولكن من وراءِ تخلُّفِ

ولابن الحجاج وكان التمس من رجل أن يذكرهُ عند بعض الكبراء :

ولا في فراهةِ بِرذَونهِ ولا في نظافةِ أثوابهِ
ولكنَّهُ في الفعالِ الكريـ ـم والخطر الأشرفِ النابهِ
رأيتك تهوى اقتناءَ المديحِ وتجهلُ مقدارَ إيجابهِ
وكيف ترجّي وصولاً اليهِ ولم تتوصَّلْ بأسبابه
لئن كنتُ أمنحهُ الاكرمينَ فما أنتَ أوَّلُ اربابهِ
وإن أتطلَّبْ بهِ نائلاً فلستَ مليئاً بإطلابهِ
وان أتصدَّقْ بهِ حسبةً فانَّ المساكينَ أولى بهِ

وقال المتنبي يهجو كافوراً :

وأسودَ مشفَرُهُ نصفهُ يقالُ لهُ أنتَ بدرُ الدُّجى

وقال ايضاً في ابن كروَّس :

فيا ابنَ كروّسٍ يا نصفَ أعمى
وإن تفخَرْ فيا نصفَ البصيرِ
تُعادينا لأَنَّا غيرُ لُكنٍ
وتبغضُنا لأَنَّا غيرُ عورِ
فلو كنتَ امرأً يُهجَى هجوَنا
ولكن ضاقَ فترٌ عن مسيرِ

ان تبوَّأتُ غيرَ دنيايَ داراً
وأتاني نَيلٌ فأنت المنيلُ

وقد يُقال انهُ قصد بذلك الاشارة الى مواصلة سيف الدولة لهُ بالاحسان والانعام ، في حالتي القرب والبعد ، ولكنهُ قد اشتطَّ في القول ، وأين منه قول البحتري :

وألبستَني النعمى التي غيَّرت اخي
عليَّ فأمسى نازحَ الدار أجنبا

وعلى الجملة فهو في باب الشكر ، دون البحتري ، وفوق كل ذي علمٍ عليم .

الفصل الثاني عشر

في

موازنة الهجو

قال البحتري يهجو محمد أبا جعفر بن بسام :

أبا جعفرٍ ليس فضلُ الفتى   اذا راح في فرطِ إعجابهِ

ألنتَ ليَ الايامَ من بعد قسوةٍ
وعاتبتَ لي دهري المسيءَ فأعتبا

كم هو كلام سهل بليغ رقيق يشف عن صدق الحكاية وسرور الشاكر بما وجدهُ من رفاهة الحال ، عقب نعمة المشكور ، ولم يكتف بذلك ، بل رأى ان حقوق الوفآء ، وفروض الشكر ، تدعوهُ الى ان ينبئ المنعم بما آلت اليهِ حاله من السعادة ولا شيءَ أبلغ في الشكر من ذلك فقال :

وألبستَني النعمى التي غيّرتْ أخي
عليَّ فأضحى نازحَ الدارِ أجنبا

وهو كلامٌ متناهٍ في الفصاحة والبلاغة ، دالٌّ على مدى نظرِ البحتري واطلاعهِ على اخلاق البشر ، وهي حالة غير منكَرة ، يجدها الناقد عريقـةً في اخلاق البشر ، في كل زمن وقطر .

أما المتنبي فقد احسن في لاميتّهِ المذكورة غاية الاحسان ، فذكر فيها الهدية وشكر ، الا انهُ كعادتهِ تجاوز حدود الشكر الى المغالاة بقولهِ :

في وسعهِ أن يستغني عن ذلك ، فان كثيراً من مدائح الخلفآء والامرآء ، قد خلت من ذكر لونهم ، وقد ساقه ذلك الى تكلف ما يُضحَك منه كقوله :

تفضحُ الشمسَ كلما ذرَّتِ الشمـ
ـسُ بشمسٍ منيرةٍ سودآء

فكيف تكون منيرةً اذا كانت سودآء ؟ وقد جرَّ ذلك بعض شرّاح ديوانه أن يتمحلوا له تخاريج كقولهم انه اراد بذلك وضوح مجدهِ وباهر عزه .

وعلى الجملة فالمتنبي يُعدُّ آخراً بين هؤلآء المادحين ، وهو في باب المديح ليس من المجلّين ولا من السابقين .

واذا نظر الناقد في اقوال الشاكرين الثلاثة ، وجد كلاً منهم قد افصح بشكره ، لما نالهُ من نعم المشكور واحسانه ، وان شاعر الحماسة ، لم يظهر أدنى تكلُّف بالشكر ، وشرح حكاية حاله بأبسط مقال ، وهو غاية في الشكر ، تناسب حالة عصره وسذاجته البدوية ، بيد أن البحتري ، هو المبرّز في هذا السباق فانظر في قوله :

الحربية ، ليخفف بذلك عن نفسهِ كلفة المدح ، ويتخلص منها على قدر الامكان ، وانظر ما أحسن ما وصف به بدر بن عمار لولا انه تجاوز الحقيقة بوصف الغبار المتصاعد عن سير الخيل .

وقوله في مدح أبي سهل الانطاكي «وتسحبُ الحِبَر» البيت . فيه فائدة تاريخية يستفاد منها ان المغنّيات لعهد الممدوح ، كنّ يخرجنَ من لدنهُ ، وهنَّ يسحبنَ الحبر ويرفلنَ به من جوده . كما تسحب النساء لهذا العهد الحبر في مصر وغيرها ، أما جرّ الخيل أرسانها ، فان اهداءهم الخيول ، عادة قديمة معروفة . وأشار بها الى ان الممدوح ، كان من اكابر الناس واجوادهم .

أما قافيته في مدح سيف الدولة ، فهي على عادته من الغلو في المدح ، ولكنه لما انتقل الى حكاية الحال ، وصف ذلك أجمل وصف .

وأما مديحه في كافور ، ففيه موضع آخر للمؤآخذة غير الغلوّ ، وذلك انه قلّما ذكرهُ الاّ ذكر لونَهُ الاسود ، وكان

والعلم، وإعجابهُ بنفسهِ إعجاباً جعله منذ أول عمره، يدعي النبوَّة، وهذا الميل والشعور والاعجاب، أنطقه بمثل الكلام الآتي، عن نفسه

ان اكن معجباً فعجبُ عجيب
لم يجدْ فوقَ نفسه من مزيدِ

وكقوله

تغرَّب لا مستعظماً غير نفسهِ ولا قابلاً الاَّ لخالقهِ حكما

وكقوله

ما نالَ أهلُ الجاهليةِ كلّهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

وكقوله

كم تطلبونَ لنا عيباً فيعجزكم ويكره اللهُ ما تأتون والكرمُ

وكقوله

وفؤادي من الملوكِ وان كا نَ لساني يُرى من الشعراء

وغير ذلك من مثله وهو شيءٌ كثير، وحجةٌ لا تدفع على ما كان في نفسهِ من الترفع، والزهو، والاعجاب، ولعله لهذا السبب كان يلجأ الى وصف الحفلاتِ والمشاهد والمواقع

أما قوله في ابن عمار، فهو في غاية الحسن، وذلك، لانه كان يصوّر في هذه الابيات، دخول الامير المذكور على طبرية، والمتنبي، في باب وصف المواقع الحربية، والحفَلات الملوكية، والمشاهد الطبيعية، كان سبّاق غايات، بل منزّل آيات، لكنه متى وصل الى طريق المدح، وجد الخطب جليلاً، والسير عسيراً طويلاً، فكأنهُ كان يرى ان الصفات التي يليق لها المدح، غير مجتمعة في الممدوح، وانهُ ان وصفه بما فيه، كان معتوباً، على انه اختصر أو قصَّر، وان زاد على ذلك كذب، وان كان ولا بد من الكذب لاسترضاء الممدوح، فليكن كذباً يحسن وقعه في أذن العامة من الناس، حتى يَدهشوا لهُ، ويظهر للعقلاء منهم، انه مصانعةٌ، ومجاملة يُراد منهما الوصول الى نوال الممدوح.

والذي كان يبعث المتنبي على ذلك، هو ما كان في نفسه من الميل الى أعلى المراتب في الدول، وما كان يشعر بهِ من الاستحقاق لذلك، وما يراهُ في نفسه من تفردهِ بين البشر بغايات مكارم الاخلاق، ومحاسن الصفات، والبأس،

والاكاذيب . وما اعظم الفرق بين هذه القصيدة والتي مدح
بها ابا العشائر وبها يقول :

ليس الاّ أبا العشائر خلقٌ
ساد هذا الأنامَ باستحقاقِ

. . . .

ثاقبُ الرأي ثابتُ الحلمِ لا يقـ
ـدِرُ أمرٌ لهُ على إقلاقِ
يا بني الحرثِ بنِ لقمانَ لا تعـ
ـدَمْكُمُ في الوغى متونُ العتاقِ

. . . .

كرمٌ خشّنَ الجوانبَ منهم
فهو كالماء في الشفارِ الرقاقِ

فهو في هذه القصيدة ، قد تحدّى طريقة البحتري
بتصوير اخلاق الممدوح ، مثلما يصوّر المصوّر ، ملامح
الشخص المراد تصويره ، وهذا هو المطلوب من المادح ،
والمسنون لهُ في شرع المدح عند الناقدين .

أما قوله في ابن عمار، فهو في غاية الحسن، وذلك، لانه كان يصوّر في هذه الابيات، دخول الامير المذكور على طبرية، والمتنبي، في باب وصف المواقع الحربية، والحفَلات الملوكية، والمشاهد الطبيعية، كان سبَّاق غايات، بل منزّل آيات، لكنه متى وصل الى طريق المدح، وجد الخطب جليلاً، والسير عسيراً طويلاً، فكأَنهُ كان يرى ان الصفات التي يليق لها المدح، غير مجتمعة في الممدوح، وانهُ ان وصفه بما فيه، كان معتوباً، على انه اختصر أو قصَّر، وان زاد على ذلك كذب، وان كان ولا بد من الكذب لاسترضآء الممدوح، فليكن كذباً يحسن وقعه في أذن العامة من الناس، حتى يَدهشوا لهُ، ويظهر للعقلآء منهم، انه مصانعةً، ومجاملة يُراد منهما الوصول الى نوال الممدوح.

والذي كان يبعث المتنبي على ذلك، هو ما كان في نفسه من الميل الى أعلى المراتب في الدول، وما كان يشعر بهِ من الاستحقاق لذلك، وما يراهُ في نفسه من تفردهِ بين البشر بغايات مكارم الاخلاق، ومحاسن الصفات، والبأس،

والاكاذيب . وما اعظم الفرق بين هذه القصيدة والتي مدح بها ابا العشائر وبها يقول :

ليس الاّ أبا العشائر خلقٌ
ساد هذا الأنامَ باستحقاقِ

. . . .

ثاقبُ الرأي ثابتُ الحلمِ لا يقـ
ـدِرُ أمرٌ لهُ على إقلاقِ
يا بني الحَرثِ بنِ لقمانَ لا تعـ
ـدَمْكُمُ في الوغى متونُ العتاقِ

. . . .

كرمٌ خشّنَ الجوانبَ منهمْ
فهو كالمـآء في الشفارِ الرقاقِ

فهو في هذه القصيدة ، قد تحدّى طريقة البحتريّ بتصوير اخلاق الممدوح ، مثلما يصوّر المصوّر ، ملامح الشخص المراد تصويره ، وهذا هو المطلوب من المادح . والمسنون لهُ في شرع المدح عند الناقدين .

لو استبدلت ذهنك من حسامٍ
قددتَ بهِ المغافرَ والدروعا
لو استفرغت جهدك في قتالٍ
أتيت بهِ على الدنيا جميعا

وهذا من اكبر ما يعاب عليه المتنبي في شعره ، وله باب سيأتي ذكره .

واذا انتقدت البيت المتقدم في عبد الرحمن بن الانطاكي عجبت من صدور مثل هذا الكلام عن المتنبي ، نعم انه ليقال ان الزلازل كانت تنتاب انطاكية الحين بعد الحين ، والممدوح من صلحاء انطاكية ، فلا عجب ان يحضر المعنى الذي أتى به ، الى ذهن الشاعر ، ولكن ليت شعري ، ألم يكن من معنى يصل بين صلاح الممدوح ودفع الزلازل ، سوى رشّ المدن بماء رجليه ؟ ومن تصفح هذه القصيدة ، علم انها من أوائل شعره ؛ فانه اعطى ممدوحه الانطاكي من وافر الثناء ، ما ربّما ضنّ بعد هذا بمثله على الملوك والامراء ، وهي من هذا الوجه تدخل لدى الناقد ، في باب المداهنة

وكان حال نظمهِ يصنع صنيع المصور البارع ، فينظر الى صفات الممدوح من ملامحهِ ، واخلاقهِ ، وحسبهِ ، فما كان من سحنتهِ ظاهر الحسن ، او من اخلاقهِ واضح الفضل ، او من اصلهِ حريًّا بالثنآء ، رقمهُ عليه في قصيدته ، وحلاهُ به ، وأبرز الممدوح للقارئ والسامع ، مصوَّراً أحسن تصوير ، وهي صفة امتاز بها البحتري على جميع الشعرآء ، فهو السابق المجلّي في هذه الموازنة .

واذا نظرت الى قول المتنبي في عليّ التنوخيّ ، وجدته قد اصاب شاكلة الصواب ، في البيتين السابقين ، الاّ انهُ لم يقف عند هذا الحدّ ، بل تجاوزهُ الى المبالغة المكروهة ، فقال بعد ذلك :

إن استجرأتَ ترمقهُ بعيداً
فأنتَ اسطعتَ شيئاً ما استُطيعا
وان ماريتني فاركبْ حصاناً
ومثّلهُ تخرُّ لهُ صريعا

ثم لم يكفهِ هذا فقال له بعد ذلك :

ذا الرئاستين ، فلا بدع ان سمَّاهُ البحتري ملكاً وهو أخو بوران ونسبهُ يصعد الى الملوك الساسانيين .

واذا نظر الناقد في مدحهِ اسمعيل ابن بلبل ، وكان وزيراً ، يراه ذهب الى الاغراق في المدح ، بعد ان وصفه بما كان عليه من عِظَم كراديس المناكب والجسامة والقوة ، وكلها صفات حقيقية ولا ريب ، وقد كانت لذلك العهد ، كأعزّ الخصال واعظم النعم الربانية ، وكان لها المقام الاول في الدول ، لحاجاتهم الى الضرب والطعان ، ومنازلة الاقران ، وفي جميع هذه الاحوال ، كان لا بدَّ للمحارب من لبس الدروع الثقيلة ، وعلى الخصوص الوزرآء والقُوَّاد ، فانهم كانوا احوج الناس الى الجسامة والقوة ، لان الفنون الحربية ، كانت تقضي على القائد في تلك العصور ، أن يكون في مقدمة الجيش عند النزال او في المبارزة ، كما هو معلوم من مطالعة تواريخهم .

وعلى الجملة فان البحتري كان اصدق الشعرآء ، وأعلمهم بأساليب المدح ، فانهُ قلَّما تجاوز الى الغلوّ والاغراق ،

العالية الاولى في الدولة بعد الخليفة ، بل كانت لهُ هيبةٌ في قلوب الناس لم تكن للمتوكل نفسه . ومن أنعم النظر في مدائح البحتري للمتوكل والفتح ، وكان ذا بصيرة نقادة ، تحقق لديه هذا القول ، ووقف من سائر مدائحهِ لهما على المنزلة الرفيعة التي كانت للفتح عند المتوكل وفي دولته ، وعلى كثير من احوال الفتح ؛ على انك لو فتشت عن ذلك في أكثر التواريخ ، كتاريخ ابن الاثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، لما وجدت شيئاً منه ، بل لم يذكرهُ بعضهم ، الا عَرَضاً عند ذكر قتل المتوكل .

وأما ممدوحهُ ابرهيم بن الحسن بن سهل ، فهو أخو بوران زوجة الخليفة المأمون ، ولم أقف لهُ على ترجمة في الوفيات ، ولا في فوات الوفيات ، ولا في الكامل لابن الاثير ، ولا في ابن خلدون ، ولكن يظهر للناقد من كلام البحتري فيه ، أن ابرهيم هذا كان اميراً وُلّيَ بعض الاقطاع ، وكان اديباً ، فصيحاً ، عاقلاً ، كريماً ، وكان يتضمخ بالمسك ، وكانت الولاةُ لعهدهِ تلقَّب بالملوك ، وكان عمهُ الفضل

لما كان الحقد في الفتح صفة عُرف بها واشتهر عند الناس ، وكان حسّادهُ يعيبون عليه ذلك ، واراد البحتري ان يرد عليهم ، لم يشأ ان ينكره ، لان انكار الظاهر ، ضرب من العجز والحمق ، ولا يفعله الاَّ الجهول ، فكأَنه قال ان الوزير حليم ، ما دام الحلم نافعاً ، فان لم ينجع ، فويلٌ للجهول من حقدهِ ، وقد قال في موضع آخر :

خفيُّ مدَبِّ الكيدِ تثني أناته
تسرّعُ طيشِ الجاهلِ المتوثّبِ
ويبدي الرضى في حالة السخط للعدى
وقورٌ متى يقدح بزنديه يثقبِ

فانظر كيف كان في مدائحه جميعها يصور أخلاقه وعواطفه ، وحركاتهِ وسكناته ، فيصوّر المكر والخداع أحسن تصوير حتى ليودّ القارئ لو كانت فيه تلك الاخلاق .

وعلمنا من البحتري ان الفتح كان فطناً عاقلاً ألمعياً يتحيّن الفرص لبلوغ مقاصده ، وعلى الجملة فان الخليفة المتوكل لم يكن يفعل شيئاً الاّ بعد مشورته ، وانه كانت لهُ المنزلة

لهُ اجلالاً ، ولا ينطقون عند مروره ببنت شفة ، كأَن على رؤوسهم الطير ، وانه كان له حجابٌ ورواقٌ ، والرواق موضعٌ أو بهوٌ يجلس الزائرون فيه منتظرين الى ان يصدر لهم الاذن بالدخول على الملك أو الوزير ، فاذا صدر الاذن ، نادى الحاجب الاول باسم الزائر فيكرر ذلك الحاجب الثاني ، فيعلم ان الوزير يدعوه ، فينهض مسرعاً ويدخل عليه ،

وعلمنا منه ان الفتح بن خاقان ، كان شديد الحقد ، كأَكثر الملوك والوزرآء ، بل ربما كان أشد في ذلك من سواه لقول البحتري :

حليمٌ فان يبلَ الجهولُ بحقدهِ
يبتْ جارَ رأسِ الحيَّة المتقطّعِ

وان قيل انك تصور الوزير ، ولا برهان لديك غير قول البحتري ، قلتْ وقوله هذا حجةٌ ، يدعمها صدق النقد ، فمثل البحتري لا يمدح وزيراً كالفتح بن خاقان ، عالماً بمقامات الكلام ، عالماً بالفهم والذكاء وسعة العلم ، بقولهِ انه حقودٌ ، فليس الحقد من الصفات النبيلة ليمدح عليه صاحبه ، ولكن

قولهُ : بوجهٍ هو البدرُ المنيرُ نفى الدجى : وقولهُ

ويبتدرُ الرآؤون منـهُ اذا بدا
سنا قمرٍ من سدَّة الملكِ مطلعِ

بل لكان خذلهُ وأقصاه وعدَّ ذلك احتقاراً لهُ وتهكماً منهُ ، فان للبحتري مندوحةً عن مثل هذه الاكذوبة الفاضحة ، بمدح الفتح بصفاتٍ كثيرةٍ كانت به ، فضلاً عن ان الحسن ليس من الصفات التي لا بد منها للرجال من اكابر الناس ، نعم ان جمال الوجه من الكمالات المستحسنة والمحبوبة ، فان وجدت في الممدوح ، كانت عدَّة للمادح ، يذكرها في تضاعيف كلامه عنه ليجمّل بها صورة الممدوح الحسّية ، مثلما يجمّل صورته المعنوية بذكر الفضائل التي تحلّى بها ، ولم يكتفِ البحتري بالاشارة الى جمال الفتح في هذين الموضعين ، بل كرر ذلك في سائر مدائحهِ لهُ ، وهو برهانٌ على ما ذكرته من جمال الفتح .

ثم علمنا من وصفه لهُ ان الفتح كان طويل القامة ، عظيم الهيبة ، وان الناس كانوا اذا بصروا به قادماً ، يقومون

لتصوير صفات ممدوحيه الغالبة عليهم ، ولا أُريد بذلك انهم كلهم كانوا متخلقين باحسن الخلق ، بل انه كان يأخذ أحسن ما فيهم من صفاتهم المعلومة ، فلا يلجأ الى المغالاة والمبالغات الممتنعة عقلاً ، وكان في ذلك صادق النظر ، بصيراً بوجوه المدح ، وهو في هذا الباب يُعد من السابقين المبرّزين .

أما البحتري فلم يكن دون أبي تمام في هذا القسم ، وكان يدخل المدح من أبوابه ، ويتحذر من السلوك في غير طريقه الواضحة الامينة ، فقد علمنا من مدائحه للفتح بن خاقان ، ان الممدوح كان جميل الصورة ، وان قيل ان الشعراء ، كثيراً ما يمدحون الملوك والوزراء بمثل ذلك ، فينسبون للممدوح الجمال ، وقد لا يكون ، قلتُ ان الكلام الآن على الشعراء ذوي المنزلة الاولى والطبقة العالية ، وهؤلاء لم يكونوا ينطقون في مثل هذه المواضع ، أو بمثل هذه الصفات ، الاَّ بعد الامعان في التروّي ، ومثل الفتح بن خاقان ، لو كان قبيح الوجه ، بل لو لم يكن جميلاً ، لما احتمل من البحتري

مستطيلاً : والفضل كان وزير المعتصم قبل ابن الزيات ، فصح عندي حكم النقد المتقدم .

وكان ابن الزيات يكرّم الشعرآء ، ومع ما كان لهُ عند الخليفة المعتصم من المنزلة الرفيعة ، لم يكن يتمكن من حضرته في كل وقت ، بل كان يُحجَب أحياناً ، ومن قول ابي تمَّام هذا ، يتحقق الناقد ، ان أبا تمَّام لم يداهن ابن الزيات في هذه القصيدة ، بل كأَنهُ جعلها له كترجمة حاله ، فذكر صفاته واكثر شؤونه ، اذ قول الشاعر للممدوح ، ان الخليفة قد حجبك ، ليس من صفات المدح ، بل أخلق به ان يكون دفعاً لتعيير الحاسدين كما يظهر من سياق تعبيره ، وقد علمنا من قول أبي تمام ايضاً ان ابن الزيات كان يتخذ حجَّاباً لنفسه ايضاً في وزارته .

وقس على ما تقدم مدحه الحسن بن وهب ، فقد صوَّرهُ أحسن تصوير ، فعلمنا منه ، انه كان صبيح الوجه ، لين العريكة ، لطيف العشرة ، أديباً ، خطيباً .

والذي يراه الناقد في مدح أبي تمام ، انه كان يعمد

كان أكثر الناس في ذلك التاريخ ، شيعةً او متشيعين ، وخصوصاً في بغداد ، فلا معنى اذاً لتخصيص الممدوح بكلمة شيعي" الا اذا فسرت بما تقدم ، او بما يشبهه .

ومن هذه القصيدة فهمنا ان الممدوح كان رزيناً ، فصيحاً ، جسوراً ، مهيباً ، غير مسرف بالمسرات في ساعات رضاه ، ولا متسرع في ساعة الغضب ، وان مجلسه مجلس احترام ورصانة ، وفي ذلك كله اشارة الى ان سلفه كان على عكس ذلك ، ولست ارجم بالغيب ، فانني عند انتقادي هذه القصيدة ، قد وقع ذلك عندي موقع الظن لقوله :

لا المنطق اللغوُ يزكو في مقاومهِ
يوماً ولا حجةُ الملهوف تستلبْ
لا سورةٌ تتقى منهُ ولا بلهٌ
ولا يحيف رضى منه ولا غضب

فرمت امتحان نقدي ، ورأيت التاريخ أعدل شاهد ، فرجعت اليه ، قال ابن الاثير : كان الفضل ابن مروان شرس الاخلاق ، ضيق العطن ، كريه اللقاء ، بخيلاً ،

باب المديح ، ويعدّ قائلها من السابقين .

واذا نظر الناقد الى قصيدة أبي تمّام في ابن الزيات ، بدا لهُ منها على قصرها ، حصة من ترجمة الممدوح ، عرفنا منها عنهُ ما فات المؤرخين ذكره ، فقد أعلمنا ابو تمّام ، ان ابن الزيات لم يكن وزير الخليفة المعتصم فقط ، بل كان أيضاً والي الشرطة ، ومحتسباً ، ومستشار ديوان الملك ، وشيعياً . وهاتان المرتبتان لم يذكرهما ابن خلدون في خطط الدولة العباسية ، ولعل مرتبة الشيعي كانت لذلك العهد ، كوزارة المذاهب في كثير من دول هذا الاوان ، وان قيل من اين لك هذا التفسير ؟ قلت من صدق النقد ، لانه لو زعم زاعم ، ان لفظة شيعي في بيت ابي تمّام ، هي بمعناها المفهوم لغةً وعرفاً ، وهو احد الشيعة او المتشيعين للامام عليّ ، لاجبته لم يسبق لاحد من الشعرآء ان يجعل مذهب ممدوحهِ ، او نحلته ، من صفات المدح ، ولو كانت كلمة شيعيّ في ذلك العهد ، من الفاظ المدح ، لمدح بها كثير من الخلفاء العباسيين ، وكانوا من أشد الناس تشيعاً لعهدهم ، وبعد فقد

العرندس البدويّ قد جآء في كلامهِ بغاية المدح ، مع انهُ كما يتبين للناقد ، لم يذكر غير الحقيقة ، ولم ينفِ عن ممدوحيهِ سوى المذموم من الخصال ، وقد ذكر بعض صفاتهم المحمودة التي دعته الى المدح ، فلم يجعل الزمن خادم أمرهم ، او السعد عبد مجدهم ، او الرياح طوع اشارتهم ، او المكارم فاضت على جميع أهل الارض من بحور اياديهم ، — كما اولع المولدون بعدهُ بذلك حسبما تقدم نقدهُ في الجزء الاوّل — . ومع ما تقدم فلو قُرئت هذه الابيات على ملك لتمنى لو انها فيه . بقي أمرٌ يراهُ الناقد ، هو ان العرندس لم يصف لنا مقامات ممدوحيه ، وبعبارة أخرى ، لم نعلم من كلامه مِهنَهم وصناعاتهم ، فلا يُدرى أكانوا وزرآء ، ام ملوكاً ، ام سوقة ؟ بَيْدَ انَّ هذا مما لا يحار فيهِ الناقد ، الاّ اذا جهل اسم الشاعر وعصره ، ولكن نحن نعلم ان العرندس بدويّ يمدح قوماً من كرام العرب ، وليسوا من الامرآء ، اذ لو كانوا امرآء لما فاته ذكر ذلك .

وبالاجمال فهذه الابيات تعدّ من الطبقة العالية في

. . . .

وموالٍ تحييهمُ من يديهِ
نِعَمٌ غيرُهم بها مقتولُ
فرسٌ سابحٌ ورمحٌ طويلٌ
ودِلاصٌ زغفٌ وسيفٌ صقيلُ
لستُ أرضى بأن تكونَ جوداً
وزماني بأن أراكَ بخيلُ
نغَّصَ البعدُ عنك قربَ العطايا
مرتعي مخصبٌ وجسمي هزيلُ
ان تبوَّأتُ غيرَ دنيايَ داراً
وأتاني نيلٌ فأنت المنيلُ
من عبيدي ان عشتَ لي الفُ كافو
رٍ ولي من نداكَ ريفٌ ونيلُ
ما أُبالي اذا اتَّقتكَ الرزايا
من دهته حبولها والخيولُ

فاذا وازنتَ بين قصائد المدح المتقدمة ، رأيتَ

أَلنتَ ليَ الايامَ من بعد قَسوةٍ
وعاتبتَ لي دهري المسيءَ فأعتبا
وأَلبستني النعمى التي غيَّرت أخي
عليَّ فأمسى نازحَ الدارِ أجنبا
فلا فزتُ من مرِّ الليالي براحةٍ
اذا أنا لم أُصبح بشكركَ متعبا
على أنَّ افواف القوافي ضوامنٌ
لشكركَ ما أبدى دُجى الليلِ كوكبا
ثناءٌ تقصَّى الارضَ نجداً وغائراً
وسارت بهِ الركبانُ شرقاً ومغربا

وقال المتنبي يشكر هديةً بعث بها اليه سيف الدولة مع ابنهِ الى الكوفة :

والمسمَّونَ بالأميرِ كثيرٌ
والأميرُ الذي بها المأمولُ
الذي زلتُ عنهُ شرقاً وغرباً
ونداهُ مقابلي ما يزولُ

وإذا ارتحلتَ فشيعتكَ سلامةٌ
وغمامةٌ لا ديمةٌ مِدرارُ
تنفي الهجيرَ بظلّها وتُنيمُ بال
ـرشِّ القتامَ وكيف شئتَ تُدارُ

قال هذا ما تمنّاهُ الوليّ ، لا ما تمناهُ الجعفيّ ، فانه قال حيث ارتحلتَ وديمة ، وما تكاد تنفذ معها عزيمة ، واذا سفحتْ على ذي سفرَ ، فما أحراها بأن تعوقهُ عن الظفر ، ونعتها بمدرار ، فكان ذلك أبلغ في الاضرار : قلتُ وهو نقدُ بصيرٍ في معاني الكلام ، جدير بأن تتنبه لهُ الافهام .

وقال احد شعراء الحماسة : في الشكر :

سأشكرُ عمراً ما تراخت منيتي
أياديَ لم تمنْن وانْ هيَ جلّتِ
رأى خلّتي من حيثُ يخفى مكانُها
فكانت قذى عينيهِ حتى تولّتِ

وقال البحتري يشكر الفتح بن خاقان :

وأقبلَ يمشي في البساطِ فما درى
الى البحرِ يسعى أم الى البدرِ يرتقي
ولم يثنكَ الأعداءُ عن مُهجاتهم
بمثلِ خضوعٍ في كلامٍ منمَّقِ
وكنتَ اذا كاتبتَهُ قبلَ هذهِ
كتبتَ اليهِ في قذالِ الدمستقِ
فان تُعطهِ منكَ الأمانَ فسائلٌ
وان تُعطهِ حدَّ الحسامِ فأخلقِ

وقال يمدحهُ ايضاً :

سِرْ حلَّ حيثُ تحلُّهُ النوَّارُ
وأرادَ فيكَ مُرادَكَ المقدارُ
واذا ارتحلتَ فشيَّعتكَ سلامةٌ
حيثُ اتجهتَ وديمةٌ مِدْرارُ

قال الوزير الكاتب ابو محمد بن عبد الغفور يمدح الامير يحيى وهو أحد أُمراء زمانه معارضاً قول المتنبي الاخير :

ضروبٌ باطرافِ السيوفِ بنانُهُ
لعوبٌ باطرافِ الكلامِ المشقَّقِ

. . . .

لقد جدتَ حتى جدتَ في كلِّ ملَّةٍ
وحتى أتاكَ الحمدُ من كلِّ منطقِ
رأى ملكُ الرومِ ارتياحَكَ للندى
فقامَ مقامَ المجتدي المتملِّقِ
وخلَّى الرماحَ السمهريَّةَ صاغراً
لِأَدربَ منهُ بالطعانِ وأحذقِ
وكاتَبَ من أرضٍ بعيدٍ مرامُها
قريبٍ على خيلٍ حوالَيكَ سبَّقِ
وقد سارَ في مسراكَ منها رسولُهُ
فما سارَ الاّ فوقَ هامٍ مفلَّقِ
فلما دنا أخفى عليهِ مكانَهُ
شعاعُ الحديدِ البارقِ المتألقِ

فكأنهُ والطعنُ من قدَّامه
متخوِّفٌ من خلفهِ ان يُطعنا

. . . .

أقبلتَ تبسمُ والجيادُ عوابسٌ
يخببنَ بالحلَقِ المضاعفِ والقنا
عقدتْ سنابكها عليها عثيراً
لو تبتغي عَنَقاً عليه لامكنا
والامرُ أمرُكَ والقلوبُ خوافقٌ
في موقفٍ بين المنيةِ والمنى
وقال يمدح أبا سهل سعيد الانطاكي :
وتستحبُ الحِبَرَ القيناتُ رافلةً
من جودهِ وتجرُّ الخيلُ أرسانا
وقال يمدح سيف الدولة :
فلا تبلغاهُ ما أقولُ فانهُ
شجاعٌ متى يذكرْ لهُ الطعنُ يشتقِ

يطلقُ الحكمةَ البليغةَ في عر

ضِ حديثٍ كاللؤلوء المنثورِ

وقال ايضاً يمدح اسماعيل بن بلبل

مضيٌّ وابهى المشرفياتِ ان تُرِي

مؤثرها من جوهر أو صقيلَها

عظيمُ كراديسِ المناكبِ قادرٌ

على الدرع ان يغتال عنهُ فضولها

وقال المتنبي يمدح عليَّ بن ابرهيم التنّوخيّ :

بعيـدُ الصيتِ منبثُّ السرايا

يشيّبُ ذكرُهُ الطفلَ الرضيعا

يغضُّ الطرفَ من مكر ودهيٍ

كأَنَّ بهِ وليسَ بهِ خشوعا

وقال يمدح الامير بدر بن عمار :

نيطتْ حمائلهُ بعاتقِ محربٍ

ما كرَّ قطُّ وهل يكرُّ وما انثنى

أفالآنَ حاولتَ الرضى بعد ما مضتْ
صريمةُ غضبانٍ على الشرّ مُجمعِ
اذا بَدَرَتْ منهُ العزيمةُ لم يقفْ
وان جاز عنهُ الامرُ لم يَتَتبَّعِ

وقال أيضاً يمدح ابرهيم بن الحسن بن سهل :

جامعُ الرأي ليس يخفى عليهِ
أينَ وجهُ الصوابِ والتدبيرِ

. . . .

فلهُ كلما أتتهُ أمور
مشكلاتٌ دلائلٌ من أمورِ
كسرويٌّ عليهِ منهُ جلالٌ
يملأُ البهوَ من بهاءٍ ونورِ
وترى في روآئه بهجةَ المل
كِ اذا ما استوفاهُ صدرُ السرير
واذا ما أشار هبَّت صبا المس
كِ وخلتَ الاآنَ ثم من كافورِ

فلست ترى الاَّ افاضـةَ شاخص
اليـه بعينٍ أو مشيرٍ باصبعِ
مُراعٍ لاوقاتِ المعالي فان يلُح
لهُ شرفٌ يوجفْ اليهِ فيوضعِ

. . . .

حليمٌ فان يبلَ الجهولُ بحقدهِ
يبتْ جارَ رأسِ الحيَّةِ المتقطعِ
وقد آيسَ الأعداءِ محكَ مضاجرٍ
لجوجٍ متى يحرُزْ بكفيَّهِ يقطعِ
طلوبْ لأقصى الأمرِ حتى ينالَهُ
ومغرىً بغاياتِ الحقائقِ مولَعِ
وقلتُ لمغرورٍ بهِ حانَ وارتمتْ
بهِ مطمعاتُ الحَيْنِ في غيرِ مطمعِ
تركتَ اقتبالَ العفوِ والعفوُ مُعرضٌ
اذِ السلمُ باقٍ والقوى لم تقطّعِ

الرأي ، فاضلاً ، كبير النفس ، ذكياً ، كريماً ، شديد الحقد :

أضاءَ لنا أفقَ البلادِ وكشَّفتْ
مشاهدهُ ما لا يكشّفهُ الفجرُ

بوجهٍ هو البدرُ المنيرُ نفى الدجى
سناهُ وأخلاقٌ هيَ الانجمُ الزهرُ

وقال يمدحهُ ايضاً :

ويبتدرُ الراؤونَ منهُ اذا بدا
سنا قمرٍ من سدَّة الملكِ مطلعِ

اذا ما مشى بين الصفوفِ تقاصرتْ
رؤسُ رجالٍ عن طوالٍ سميذع

يقومون من بُعدٍ اذا بصروا به
لأَبلجَ موفور الجلالة أروعِ

ويدعَوْن بالاسماءِ مثنى وموحداً
اذا حضروا باب الرواقِ المرفعِ

اذا سارَ كفَّ اللَّحظُ عن كل منظرٍ
سواهُ وغضَّ الصوت عن كل مسمعِ

وقال يمدح الحسن بن وهب . كان كاتب الزيات المتقدم ذكره وولّي ديوان الرسائل ، وهو من اعيان عصره ، وكان كاتباً فصيحاً ، وشاعراً بليغاً :

أبو عليٍّ أخلاقه زهَرٌ
غبَّ سماءٍ وروحهُ قدْسُ

. . . .

للمجدِ مستشرفٌ وللادب الـ
مَجفوِّ تِربٌ وللندى حاسُ
وحومةٍ للخطابِ فرَّجها
والقومُ عجمٌ في مثلها خرسُ
شاكَّ حشاها بخطبةٍ عَنَنٍ
كأنَّها منهُ طعنةٌ خَلسُ
أروعُ لا من رياحهِ الحرجفُ الـ
حرُّ ولا من نجومهِ النحسُ

وقال البحتريّ يمدح الفتح بن خاقان ، وكان وزير المتوكل على الله الخليفة العباسي ، وكان عالي الهمة ، سديد

ثبتُ الخطاب اذا اصطكّت بمظلمةٍ
في رجلهِ ألسنُ الاقوام والركبُ
لا المنطقُ اللغوُ يزكو في مقاومهِ
يوماً ولا حجّةُ الملهوفِ تستلَبُ

. . . .

لا سَورةٌ تُتقى منهُ ولا بلهٌ
ولا يحيفُ رضًى منهُ ولا غضبُ
ألقى اليكَ عرى الامرِ الامامَ فقد
شدَّ العناجُ من السلطانِ والكربُ
ان تمتنعْ منكَ في الاوقاتِ رؤيتهُ
فكلُّ ليثٍ هصورٍ غيلهُ أشبُ
أو تلقَ من دونه حجبٌ مكرمةٌ
يوماً فقد لقيتْ من دونكَ الحجبُ

. . . .

أما القوافي فقد حصّنت غرّتها
فما يُصابُ دمٌ منها ولا سلَبُ

من تلقَ منهم تقل لاقيتُ سيّدَهُمْ
مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات وكان وزير المعتصم وابنه الواثق ، قال ابن خلّكان وكان من أهل الادب الظاهر ، والفضل الباهر ،

ردءُ الخلافة في الجُلّى اذا نزلت
وقيّم الدينِ لا الواني ولا الوصبُ

جفنٌ يعافُ لذيذَ النوم ناظرُهُ
شجٍى عليها وقلبٌ نحوها يجبُ

طائعةٌ رأيهُ من دون بيضتها
كما انتمى رابئٌ في الغزوِ منتصبُ

شعارُها اسمك ان عُدَّت محاسنها
إذِ اسم حاسدِكَ الادنى لها لقبُ

وزير حقٍ ووالي شرطةٍ وربا
ديوان ملكٍ وشيعيٌّ ومحتسبُ

. . . .

الفصل الحادى عشر

في

موازنة المدح والشكران

قال العرندس من شعراء الحماسة :

هينونَ لينونَ أيسارٌ ذوو كرمٍ
سُوَّاسُ مكرمةٍ ابناءُ أيسارِ
إن يُسألوا الحقَّ يُعطوهُ وان خُبِروا
في الجهدِ أُدرِكَ منهم طيب أخبارِ
وان توددتَهم لانوا وان شهموا
كشَّفتَ أذمار شرٍّ غير أشرارِ
فيهم ومنهم يُعد المجد متَّلداً
ولا يُعدُّ نثا خزيٍ ولا عارِ
لا ينطقونَ عن الفحشاءِ ان نطقوا
ولا يُمارونَ ان ماروا باكثارِ

منهل الوراد في علم الانتقاد

الجزء الثاني

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عفي عنهُ

مطبعة الاخبار بالفجالة بمصر

منهل الورّاد في علم الانتقاد

الجزء الثاني

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عفي عنهُ

مطبعة الاخبار بالفجالة بمصر